

شبهات النصارى وحجج الإسلام

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

الطبعة الثالثة ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م

مطبعة نهضة مصر بالفجالة
القاهرة

شبهات النصارى وحجج الإسلام

تأليف
السيد محمد رشيد رضا

الطبعة الثالثة ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يحرص المؤتمر الإسلامى كل الحرص على رفع المستوى الثقافى بين المسلمين عامة ولذا فهو لا يألو جهدا فى أن يقدم لهم من الكتب ما يتبين فضله : ويرجح نفعه .

ثم يؤثر ما يحق حقا ، أو يبطل باطلا .

ومن هذا النوع كتاب « شبهات النصارى وحجج الإسلام » للمرحوم « السيد محمد رشيد رضا » الذى أبلى بلاء حسنا ، فى رد كيد الكائدين . وإعلاء شأن الدين .

وإنك لواجد فيه من التحقيق فيما عرض له من المسائل ذات الشأن ما يذهب بحيرة الحائر ، ويزيد اطمئنان المطمئن . وما يقضى على افتراء المفترى ، وإضلال المضل .

لأجل هذا كان حقا على المؤتمر الإسلامى أن يعيد طبع هذا الكتاب على نفقته ليقدمه هدية إلى من يشاء ليستضىء بنوره ، ويهتدى بهديه .

٢٨ من شوال سنة ١٣٧٥ هـ
٧ من يونيو سنة ١٩٥٦ م

أنور

السادات

ﻫ

بسم الله الرحمن الرحيم

أدعُ إلى سبيلِ رَبّكَ بِالحِكمةِ والمَوْعِظةِ الحسَنةِ وَجادِلهُمْ بِالّتى هِىَ أَحْسَنُ ، إنَّ رَبّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بِالمُهْتَدِين ٥ (سورة النحل) ولاَ تُجَدِلوا أهْلَ الكِتَابِ إلاّ بالّتى هِىَ أحْسَنُ إلاّ الّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنّا بِالّذِى أُنْزِلَ إلينا وأُنْزِلَ إلَيكُمْ وَإلهُنَا وَإلهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٥ (سورة العنكبوت)

إنما حياة الأديان بالدعوة ، وقوة الحق بنفسه ، وبقاء الباطل فى غفلة الحق عنه . وقد يخفى الحق بخذلان أهله له، ويظهر الباطل باجتماع أهله عليه ، وما تصارع حق وباطل إلا وكان الحق هو المنتصر ، والباطل هو المنكسر . (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) .

ظهر الإسلام فصارع جميع الأديان فصرعها . وقارع حزبه جميع الملل فقرعها ، وأخرجت عقائده الناس من الظلمات إلى النور ، وحولت أحكامه البشر إلى الظل وكانوا فى الحرور ، فظهر حقه على جميع الأباطيل ، وطلع به الصباح فأطفأ كل قنديل ولكن لم يلبث أن خذله أهله ، وتفرق فيه حزبه ، وطمع فيهم الطامعون ، واجترأ عليه نفسه المبطلون ، فهاجمت الوثنيه التوحيد ، واعتدى على البرهان التقليد ، واحتج عباد ابن الإنسان على عباد الرحمن ، (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) .

ضعف المسلمون بإضعافهم الإسلام ، فساد عليهم الأوربيون فى كل مكان ، وانبثت دعاة النصرانية ، فى البلاد الإسلامية ، يطعنون فى القرآن ، ويشككون

فى النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا أخاف منهم على المسلم أن يكون نصرانياً ، وإنما أخاف أن يشك فى أصل الدين المطلق فيكون إباحياً ، فإنه مهما عبثت به رياح الوثنية ، لا يصرح كالنصارى لغير الله بالألوهية (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) .

هاجم هؤلاء المسلمين من جهة ضعفهم ، ورموهم فى أرجى مقاتلهم ، علموا أنهم هجروا القرآن هجراً غير جميل ، واستغنوا عنه بما فى كتب المتأخرين من القال والقيل ، فطفقوا يبحثون عن الشبهات فى الكتاب فصوروها على التئامها متعارضة ، ومثلوها للناس على وفاقها متناقضة ، وماذا يفعل المقلد المسكين ، إذا قيل له هذه أقوال علماء مذهبك الميتين ، ألا يخشى أن يوقعوه لجهله فى الزلزال ، (وقد مكروا مكرهم ، وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) .

لم يكتف هؤلاء المتعصبون بالطعن فى الكتب والجرائد والمجلات الدينية ، حتى قاموا ينفثون سموم عدوانهم فى الصحف السياسية والعلمية ، هذه تدعى أن الإسلام عدو العقل والدين ، وتلك تزعم أن سياسته ضارة بالعالمين ، لقد أسرفتم يارماة النبال ، حتى تكسرت النصال على النصال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) .

غرتكم نومة المسلمين فهاهم قد أنشأوا يستيقظون ، ولعل موقظهم يضر بنفسه بما ينتفعون ، إذ يحملهم على العناية بالقرآن الحكيم والاستمساك بحبله المتين ، ومتى استمسكوا نهضوا ومتى نهضوا سادوا . (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)

قدكنا نهزأ بما ينشره دعاة النصرانية من الطعن فى الإسلام ، إذكنا نرى المسلمين لا يلقون له بالا ، وما لبثنا أن سئلنا عن بعض شبهاتهم ، من أحد المطلعين على منشوراتهم ، فوجب علينا شرعا أن نجيب ، فأجبنا فتلطفنا فى الجواب ،ووعدنا بأن نكتفى برد شبهات المشتبهين ، وأن نكون مدافعين لا مهاجمين ، ولكن القوم صاروا يرسلون الينا ما يكتبون ، وطالبنا بالرد عليهم المسلمون ، فما زلنا نناز لهم ونجادلهم بالتى هى أحسن ؛ ونمزج بيان تفنيد الباطل بتأييد الحق . حتى جعلنا ذلك بابا مفتوحاً فى مجلتنا (المنار) الإسلامى سميناه (شبهات النصارى وحجج الإسلام)

إشارة إلى أن الديانة النصرانية نفسها لا تناقض الديانة الإسلامية وإنما يناقضها النصارى أنفسهم ، وأن الحجج القيمة عليهم ليست للمسلمين الذين صاروا حجة على دينهم ، وإنما هي لدين الإسلام نفسه ، ثم اقترح علينا بعض أهل الغيرة بأن نجمع مقالات هذا الباب من (المنار) ونطبعها فى كتاب مستقل تسهيلا لمطالعته ومراجعته عند الحاجة ففعلنا ، وها نحن أولاء نصدر الكتاب أجزاء صغيرة زيادة فى التسهيل ، وترغيباً للكسول ، وسنجعل كل أربعة أجزاء فى مجلدوعلى الله الاتكال (هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال) .

محمد رشيد رضا

صاحب « المنار » ومنشئه

المقالة الأولى

فى سبب الرد وبيان المراد بالتوارة والإنجيل عند المسلمين

اطلعنا على صحيفة كبيرة لأحد المشتغلين بقراءة الكتب التى نشرتها البعثات النصرانية فى الطعن بدين الإسلام ، يسأل فيها كاتبها كشف شبهات علقت فى ذهنه من مطالعة تلك الكتب . ومن الواجب أن نجيب عن هذه الشبهات لأن المدافعة عن الدين أهم ما أنشىء له (المنار) ولكن سنتنا التى جرينا عليها من أول يوم هى مسألة المخالفين لنا فى الدين لا سيما المسيحيين ، بل السعى فى إزالة الأحقاد ، والاتفاق على ما فيه نجاح البلاد ، ونود أن لا يطعن أحد فى دين الآخر ، لا قولاً ولا كتابة ولكن المسيحيين لا يوافقوننا على هذا كما يوافقنا المسلمون . ولذلك نراهم يعقدون الجمعيات للطعن اللسانى فى الإسلام وينشرون الجرائد (كراية صهيون) ويؤلفون الكتب للطعن الكتابى . وإننا نصبر على هذا التعدى ، ونكتفى بكشف شبهات السائلين من أهل ديننا مع مراعاة الأدب فنقول :

إننا قد عجبنا لهذا المسلم المطالع كتب المسيحيين كيف اكتفى بمطالعتها من غير أن يطالع الكتب الإسلامية التى تقابلها بالمثل وتدفع شبهاتها وتورد عليها مالا دافع له ، ككتاب « إظهار الحق » وكتاب « السيف الصقيل » وغيرهما ، فأول جواب نجيبه به : أن عليه أن يطالع تلك الكتب ، وبعد مطالعتها والموازنة بينها وبين كتب المسيحيين التى طالعها يسأل عما يشتبه عليه إن بقيت له شبهة، لأن الجريدة التى طلب أن ننشر فيها الأجوبة عن شبهته لا يمكننا استيفاء الكلام فى مواضيعها ، لأنها تستلزم الطعن الذى نتحاماه ، خلافاً لما جاء فى آخر صحيفته . ثم إن شبهاته تنقسم إلى ثلاثة أقسام — (أحدها) مخالفة بعض نصوص الدين الإسلامى لما ورد فى كتب اليهود والنصارى (ثانيها) ورود أشياء فى القرآن لم ترد فى تلك الكتب وإن تعجب فعجب اشتباه هذا المسلم فى هذا النوع . فان السكوت عن الشىء لا يعد إنكاراً له ، فكيف يشتبه بما يعتقد أن الله أخبر به لأن أولئك المؤرخين لم يذكروه ! ! ! (ثالثها) وورود أشياء فى الكتاب والسنة مخالفة للواقع أو لما ثبت فى العلوم الحديثة بزعم من تلق عنهم . وإننا نجيب عن القسمين الأول والثالث ،

وحسبنا فى الجواب عن الثانى ما ذكرنا من أنه لا وجه للاشتباه به . ونبدأ الجواب بمسألة وجيزة فى اعتقاد المسلمين بالتوراة والإنجيل فنقول :

إن السائل يحتج على كون التوراة والإنجيل من عند الله تعالى بالقرآن تبعاً لدعاة النصرانية الذين أولع بسماع كلامهم وقراءة كتبهم ، ولعمرى إنه لا تقوم على ذلك حجة إلا شهادة القرآن ، فشهادة القرآن حجة على أن الله تعالى شرع على لسان موسى عليه السلام شريعة سماها التوراة وهذه الشهادة شبهة على القرآن لانها شهادة بحقية شيء يشهد العقل والعلم والوجود ببطلانه ، بل يشهد هو ببطلان نفسه . أما شهادته ببطلان نفسه فبما فيه من التناقض والتعارض ، وأما شهادة العقل والعلم والوجود فبمخالفة تلك الكتب التى تسمى عند القوم توراة لها ، وإذا أراد السائل أن يعرف هذا تفصيلا فليطالع ما كتب فيه من الانسكلوبيديا الفرنسية الكبرى وغيرها من الكتب التى ألفها علماء أوروبا ومثل إظهار الحق من كتب المسلمين .

وأما الجواب عن هذه الشبهة الذى يظهر صحة شهادة القرآن فهو أن التوراة التى يشهد لها القرآن هى كتاب شريعة وأحكام لا كتاب تاريخ مقتبس من ميثولوجيا الآشوريين والكلدانيين وغيرهم فنبالى بتكذيب علم الجيولوجيا وعلم الآثار العادية له ، أو موافقة هذا لبعض ما ورد فيه ، ولا تاريخ طبيعى فنبالى بتكذيب ما ثبت بالتجارب الوجودية من مخالفته ، كثبوت كون الحية لا تأكل التراب ، وإن جاء فى سفر التكوين أن الرب قال للحية « وترابا تأكلين كل أيام حياتك » فضلا عما فيه من نسبة مالا يليق بالله إليه تعالى ، ككونه ندم على خلق الانسان ونحو ذلك . فالتوراة حق وهى الشرائع والأحكام التى كان يحكم بها موسى ومن بعده من أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام وأحبارهم كما قال الله تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار) ولم يشهد القرآن لهذه الكتب الكثيرة التاريخية التى منها مالم يعلم مؤلفه وكاتبه ، وكلها كتب بعد موسى صاحب التوراة بزمن طويل ، وبهذا الجواب تصح شهادة القرآن وتبطل أسئلة المشتبه فى الخلاف التاريخى بين القرآن وكتاب حزقيال وأشعيا ودانيال وغيرهم ، لأن هذه الكتب لم يشهد لها القرآن .

ولا تغترن بتسمية القوم لجميع كتب العهد العتيق بالتوراة ، فذلك اصطلاح

جرى على سبيل التغليب ، بل إننا نرى النصارى كثيراً ما يسمون مجموع كتب العهدين — العتيق والجديد — التوراة عند ما تكون مجتمعة .

وأما الإنجيل فهو فى اعتقاد المسلمين ما أوحاه الله تعالى إلى السيد المسيح عليه الصلاة والسلام من المواعظ والحكم والأحكام وكان يعظ به ويعلم الناس . وما زاد على ذلك من هذه الكتب التى يسمونها أناجيل فهو فى نظر المسلمين من التاريخ إن كان خبراً ، وإن كان حكماً أو عقيدة فهو لمن قاله . وأنت تعلم أن النصارى يسمون مجموع كتب العهد الجديد إنجيلا ويعترفون بأنها كتبت بعد المسيح بأزمنة مختلفة وليس لها ولا لكتب العهد العتيق أسانيد يحتجون بها .

والقرآن يشهد على النصارى بأنهم لم يحفظوا جميع ما وعظهم به المسيح من الوحى المسمى بالإنجيل حيث قال : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به) ، كما قال مثل ذلك فى اليهود ، والإنجيل يطلق على بعض ذلك الوحى كما يطلق لفظ القرآن أو قرآن على بعضه . تقول كان فلان يقرأ القرآن ، ومثل هذا الاستعمال معروف حتى فى الكتاب والسنة ، وكان القرآن يسمى قرآنا قبل تمام نزوله .

ولما كانت أحكام التوراة وحكم الإنجيل موجودة عند اليهود والنصارى بلا شبهة كان القرآن يحتج عليهم بعدم إقامتها ، ولا يمنع من هذا الاحتجاج مزجهم إياها بالتاريخ ، ولكن هذا المزج هو السبب فى قول النبى ﷺ « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » أى عند ما يعرضون عليكم شيئاً من كتبهم . وذلك لأنه ليس عندنا فرقان نميز به بين الأحكام الأصلية الموحى بها وبين ما مزج بها فى التأليف معاً . إننا نرجح بعقولنا أن الأحكام المسندة إلى سيدنا موسى فى سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية كلها أو جلها من التوراة لأنها إن لم تكن هى فأين هى ؟ ونرجح مثل ذلك فى وعظ المسيح على الجبل كما فى تاريخ (إنجيل متى) وغير ذلك من المواعظ ، كما رجح بعض العلماء فى أوربا والشرق أن جزءاً كبيراً من الإنجيل الحقيقى دخل فى كتاب أشعيا ، وأما الأخبار التى عند القوم فما خالف منها القرآن نقطع بكذبه ، ولا غرو فالله يصدق والمؤرخون يكذبون . وهو معنى قوله تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) وإننا نكتفى الآن بهذا القدر وموعدنا الجزء الآتى . وإن كان للسائل شبهة

فيما كتبنا فليكتب إلينا لنزيده إيضاحاً . وكنا نحب أن يجيئنا إلى إدارة المنار ويأخذ الأجوبة الشفاهية ، لأن حرية اللسان أكبر من حرية القلم . ولولا أن فقهاءنا يحكمون بكفر من يعلم أن مسلماً شاك فى دينه ، وهو قادر على إزالة شكه ولم يفعل، لما كتبنا شيئا مما كتبنا، لأننا خطباء وفاق ووئام ، وطلاب مودة والتئام ، ولكن ديننا أوجب علينا هذا ، لا سيما وأن السائل كتم اسمه وطلب أن يجاب فى المنار فتعين علينا ذلك .

المقالة الثانية

شبهات التاريخ على اليهودية والنصرانية

موازنة بين الأنبياء الثلاثة

كتبنا نبذة معنونة بهذا العنوان (أى شبهات المسيحيين الخ) فى الجزء الخامس ذكرنا فى فاتحتها أننا طلاب مودة والتئام ، لا عوامل نزاع وخصام ، وأننا لا نود أن يطعن أحد من المسلمين والنصارى فى دين الآخر ، لأن إظهار كل فريق محاسن دينه كافية فى الدعوة إليه من غير حاجة إلى الطعن ، فقد قام الإسلام بهذه الآداب ونما نمواً وانتشر انتشاراً سريعاً لم يعرف له نظير فى التاريخ ، وذكرنا أيضاً أن إخواننا المسلمين إذا وافقونا على استعذاب هذا المشرب فإن المسيحيين لا يوافقوننا عليه ، لأنهم يؤلفون الكتب والرسائل وينشرون الجرائد للطعن فى ديننا ويرسلونها إلينا للرد عليها .

وقد ألف بعض أدبائهم وعلماء دينهم (نقولا أفندى غبريال) كتاباً جديداً فى الدعوة إلى النصرانية والطعن فى الإسلام يتميز على الكتب الأخرى بالنزاهة والخلو من الألفاظ التى تدعى شتما ، وقد أهدانا هذا الكتاب لنتكلم عنه فى المنار، ثم لقينا، وطالبنا بأن نكتب رأينا فيه، وإن كان إبطالا لدعاويه ، ولقينا أيضاً بعض المبشرين رفقاء المؤلف وألحوا علينا بالكتابة إلحاحاً، وأكد القول بوجوبها تأكيداً. لا جرم أن المجادلة هى وظيفة هؤلاء التى يعيشون بها فالبائع يطلب مشترياً والمجادل يطلب مجادلا ، ولكن طلب الرد على الكتاب لم يقتصر على هؤلاء حتى قام يطلبه منا بعض أصحاب الجرائد من المسيحيين كرصيفنا الفاضل صاحب السعادة سليم باشا الحموى، فإنه طلب ذلك منا قولا وكتابة فى جريدته (الفلاح) الغراء ، ولا شك أننا

إذا كلنا لهؤلاء المؤلفين الصاع بالصاع، بأن تجاوزنا حدود المدافعة إلى المهاجمة يرون شبرنا ذراعا وذراعنا باعاً، فإنه إذا لم يثبت دين الفطرة لا يمكن أن يثبت دين ، ولولا أن الإسلام محجوب عن الأنظار بالمسلمين لأخذ به جميع عقلاء الأوربيين .

يتبين ذلك لمن نظر فى الأديان الثلاثة من كتبها المقدسة مع معرفة تواريخ الذين جاءوا بتلك الكتب وسيرهم . وقد جرت لنا فى هذا الموضوع محادثة مع أحد علماء التاريخ المسيحيين الجغرافيين الذين لا يتعصبون فى الحقيقة لدين . وكان موضوع الكلام « من هو أعظم رجال التاريخ ؟ » ، وفرضنا أنفسنا غير معتقدين بدين ، فذكرت محمداً وذكر موسى وعيسى (عليهم الصلاة والسلام) متفقين على أنهم أعاظم الرجال مختلفين فى أعظمهم وأفضلهم بحسب حاله وأثره التاريخى .

قلت : إن موسى تربى فى بيت أعظم ملك فى العالم لذلك العهد ، على أنه ابنه فنشأ فى مهد الملك والسلطان وأشرب حب السيادة والحكم وشاهد سير المدنية ، والعلوم الكونية والسحرية ، وأبصر فنون الصنائع ، وتقلب فى ظل القوانين والشرائع ، وأظهرت عزة الملك ما اقتضاه مزاجه من الشجاعة والإقدام . ثم لما بلغ أشده وصار لفرعون وآله عدواً وحزناً علم أن له أمة مضطهدة مهانة على ما منحته من ذكاء الفطرة والجد فى العمل وكثرة النسل ، فاتخذهم عصبية له وحاول تأسيس ملك نزعت إليه نفسه لما أعطته التربية الملوكية ، وظاهر فرعون وجالده أولا بالقوة التى كان يستولى بها على النفوس ، ويستعبد بسلطانها الشعوب ، وهى قوة الأعمال الغريبة التى نشأ فى حجرها . ثم خرج عليه بقوة العصبية كما عهد من كثيرين فى ممالك متعددة ، وقد أعطانا التاريخ أن من الخارجين من يؤسس إمارة أو مملكة فى داخل المملكة التى يخرج على سلطانها ، وموسى قد خرج من مصر هاربا بقومه من فرعون ، أما عبور البحر وهى الغريبة التى لا يمكن أن تكون حيلةً ولا شعوذةً ولا سحراً ولا صناعةً ، فقد بين بعض المؤرخين أن بنى إسرائيل عبروا البحر فى نهاية الجزر من مكان قليل العمق ولما عبر فرعون بالمصريين كانت ثوائب المد قد أخذت بالزيادة والفيضان فغرقوا فيها وقد جرى مثل هذا لنابليون بونابارت فانه عبر بعسكره البحر الأحمر فى وقت الجزر إلى الشاطىء الثانى ، ولما أراد الرجوع إلى شاطىء مصر كان المد قد ابتدأ ولولا أنه أمر العسكر بأن يمسك بعضهم ببعض حتى تغلب قوة المجموع قوة المد لغرقوا أجمعين ، وما عدا هذا من غرائب موسى ففى نقله إشكالات ،

وفى فهمه شبهات ، وفى دلالته على ثبوته وكونه يتكلم عن الله تعالى نظر ، فإذا اقتنع به بعض من مضى لايمكن أن يقتنع به من حضر . والشريعة التى جاء بها يشهد التاريخ بأن أكثرها موافق لشرائع المصريين ، وما بقى منها فلا يكثر على من تربى مثل تربيته ، وأعطى مثل ذكاء قريحته .

وأما عيسى فهو رجل يهودى تربى على الشريعة الموسوية ، وحكم بالقوانين الرومانية ، واطلع على الفلسفة اليونانية ، فعرف مدنية ثلاث أمم كانوا أعظم أمم الأرض مدنية وأوسعها علماً وحكماً ، ولم يحمله شىء من ذلك على أن يشرع شريعة جديدة ولا أن ينشىء أمة ، وإنما كان خطيبا فصيحا وعلق بذهنه شىء من إفراط بعض فلاسفة اليونان فى الزهادة وترك الدنيا بالمرة ، واذلال النفس لأجل نجاة الروح والدخول فى ملكوت السماء ، فطفق يخطب بذلك وتبعه بعض الفقراء الذين وجدوا لهم بكلامه تعزية وسلوى ، وطفقوا ينقلون عنه بعض الغرائب كما هو المعهود من عامة الناس . وأن ما ينقل عنه من ذلك لا يبلغ عشر معشار ما ينقل عن أحد أولياء المسلمين كالجيلى والبدوى . وأما كونه ولد من غير أب فهى دعوى لا يمكن إثباتها إلا بثبوت دين الإسلام بالبرهان العقــــلى لا بالغرائب ، وليس ذلك من موضوعنا الآن ، فالمؤرخ إذا أحسن الظن يقول إن عيسى هو ابن يوسف النجار زوج مريم ، وهذه الزوجية لا ينكرها النصارى ، فموسى كان له أثر عظيم ، ولكن عيسى لا يعرف له التاريخ أثراً يذكر لا فى العلم ولا فى الإصلاح ولا فى المدنية بل ان تعاليمه ومواعظه تؤدى إلى فساد المدنية وخراب العمران ، والهبوط بالنوع الإنسانى من أفقه الأعلى إلى حضيض الحيوانية السفلى ، لما فيها من تربية النفوس على الذل والمهانة والرضى بالخسف والهضيمة والأمر بترك عمران الدنيا وترقيتها لاعتقاد أن الجمل يدخل فى سم الخياط ، ولا يدخل الغنى ملكوت السموات . ثم هى من جهة ثانية تعاليم إباحة لأنها تعلم أن الذى يؤمن بصلب المسيح لأجل خلاصه هو الذى يختص بملكوت السماء وتمحى جميع خطاياه . ومن اعتقد ذلك يستبيح كل محظور ويتبع هواه . ومن جهة ثالثة نرى هذه التعاليم وثنية لأنها تأمر بعبادة البشر وتطفىء نور العقل ، لأنها تكلفه بأن يعتقد بثبوت ما يجزم بأنه محال ككون الثلاثة واحداً ، والواحد ثلاثة ، وتذهب باستقلال الفكر والإرادة إذ تجعلها مقيدة

بسلطة الرؤساء بمقتضى قاعدة : أن ما يحلونه فى الأرض يكون محلولا فى السماء ، وما يعقدونه فى الأرض يكون معقوداً فى السماء .

وأما زعم أن المدنية الأوربية مدنية مسيحية فهو زعم منقوض بالبداهة ، لأن هذه المدنية مادية مبنية على حب المال والسلطة والتغلب والعزة والكبرياء والعظمة والتمتع بالشهوات ، والتعاليم المسيحية تناقض هذا كله بإفراط بعيد . وما وصل الأوربيون إلى ما وصلوا إليه إلا بعد ما نبذوا التعاليم المسيحية ظهرياً . ولو أن هذه المدنية من أثر التعليم المسيحى لنشأت عنه بقرب نشأته، ولكنها لم تظهر إلا بعد بضع قرون من ظهوره . والنتيجة أن التاريخ لا يعرف للمسيح أثراً فى الكون يجعله فى رتبة الشارعين والمصلحين فى الأمم .

وأما محمد (عليه الصلاة والسلام) فقد تربى يتيما فى أمة وثنية أمية جاهلية ليس لها شرائع ولا قوانين ولا مدنية ولا وحدة قومية ولا معارف ولا صنائع وكان أعظم إرتقاء بلغته فى عهده أن وجد بضعة نفر تعلموا الكتابة بسبب اختلاطهم بالأمم الأخرى ولم يكن هو منهم ولا السابقون إلى الإيمان به ومع هذا أوجد أمة وديناً وشريعة وملكا ومدنية فى مدة قريبة لم يعهد مثلها فى التاريخ .

علم الناس أن يبنوا عقائدهم على قواعد البراهين العقلية ، وأن تكون آدابهم وأخلاقهم على صراط الاعتدال ، وأن يقوموا بحقوق الروح والجسد وأن يراعوا سنن الله فى الخلق والأمم ، وبين لهم العبادات بآثارها فى تزكية الروح وتطهيرها ، ككون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لما اشترط فيها من الخشوع الخ ، وأباح لهم الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث ، وجعل المعاملات الدنيوية دائرة على درء المصالح وجلب المنافع ، وأطلق لهم حرية العقل والفكر ، وساوى بينهم فى الحقوق ، لا فرق بين الملك الكبير والصعلوك الفقير ، ولا بين الرجل والمرأة ، وأعطى المرأة حرية التصرف فى أملاكها ، ووضع حدوداً عادلة لتحكم الرجال فى النساء والرق ، ونقح نظام الحروب فمنع البغى والتمثيل بالقتلى، وقتل من لا يقاتل كالنساء والشيوخ والأطفال ورجال الدين الى آخر ما ذكرته لذلك المؤرخ المحقق ، وسأفصل القول فيه فى دروس التوحيد الآتية إن شاء الله .

وقد أذعن لى ذلك الفاضل بأن محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام أعظم رجال

التاريخ إلا أنه احتج على بسوء حال المسلمين وكونهم على خلاف ما ذكرت فى وصف الدين الاسلامى ، فقلت له : إن بين الإسلام والمسلمين فرقا كالفرق بين المسيحية والمسيحيين أو أبعد . وحسبك أن المدنية الإسلامية ماوجدت إلا بالدين الإسلامى (راجع مقالات « مدنية العرب » فى مجلد المنار الثالث) وكانت تتقلص عنهم كلما ابتدعوا فى الدين وانحرفوا عن صراطه، حتى وصلوا إلى ما هم فيه الآن . وأما المدنية الأوربية التى يسميها بعض الناس مسيحية فلم توجد إلا بعد ما اتصل أهل أوربا بالمسلمين ، وأخذوا كتبهم وترجموها ، وهم يزدادون ارتقاء فى مدنيتهم كلما ازدادوا بعداً عن المسيحية ، فقال هذه مبالغة فى الجانبين وانفض المجلس .

بقى أن ما تقدم من الشبه على نبوة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام يتناول أيضاً نبوة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لا لأنه يرد على دينه مثلما يرد على المعروف من دينهما ، بل لأنه شهد لهما بالنبوة والهداية الآلهية وقد ذكرنا الجواب عن ذلك فى نبذة (شبهات المسيحيين على الإسلام) التى نشرت فى الجزء الخامس من هذه السنة (أى المقالة الأولى التى قبل هذه) . ولو أنصف رجال الدين من اليهود والنصارى لتمسكوا بذلك الجواب واتفقوا عليه، لأنه لا يدفع عنهم اعتراضات علماء التاريخ والآثار العادية والجيولوجيا والتاريخ الطبيعى والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس إلا هو . وأما الجواب عن آية انفلاق البحر لسيدنا موسى فهو أن ما ذكر بعض المؤرخين من حديث المد والجزر فهو احتمال يرجح عليه أخبار الوحى الثابت بالبرهان الحقيقى الذى بيناه فى درس التوحيد قبل هذه المقالة . وكذلك يقال فى سائر الآيات وما يرد عليها من الشبهات وسنجيب عما ذكرناه من اعتراض التاريخ على التعاليم المنسوبة إلى المسيح .

وحاصل ما نقوله الآن أن إثبات الدين إما أن يكون بنقل الآيات الكونية الخارقة للعادات المعروفة للناس وفيه النظر الذى تقدم فى درس التوحيد، وهو أيضاً مشترك بين الجميع لأن كل أمة تنقل عن شارعها مثل ذلك ، فما يقال فى نقل هؤلاء يقال فى نقل الآخرين على أن نقل المسلمين أقرب إلى الصحة من نقل غيرهم لوجوه كثيرة منها أن العلم والتأليف والرواية اللسانية معروفة فيهم من القرن الأول إلى الآن . ومنها أنه لم يغلب عليهم عدو حرق كتبهم وطمس معالم الثقة بدينهم وتاريخهم، ومنها أنهم لم يضطهدوا ويضطروا لكتم دينهم ، فيقال إن التلاعب حصل فى إبان

الكتمان . ومنها أنهم هم الذين اخترعوا وضع التاريخ للرجال لأجل معرفة صحة الرواية من عدمها ، ولم يكن لليهود ولا للنصارى مثل هذه المزايا . وإما أن يكون بالآيات النفسية والعلمية وهذا لا يظهر فى نبى كظهوره بالنسبة إلى نبينا ﷺ كما بيناه فى درس التوحيد المنشور فى هذا الجزء ، وسنزيده بيانا فيما سيأتى كما وعدنا وحينئذ يكون البرهان الصحيح فى هذا الوقت على نبوة موسى وعيسى عليهما السلام شهادة نبينا لهما ، كان الله تعالى أعطاهما فى زمنيهما آيات تناسب حال الأمم فيهما ، ولا يمكن أن تثبت الآن بنفسها ، ولذلك نرى كل من يتعلم ويعقل من المنتسبين اليهما ينبذها ظهريا ويحسبها شيئاً فريا ، ولو عرف الإسلام حق المعرفة لقبله وقبلها على وجه معقول .

إذن إن أفضل خدمة للدين المطلق هى أن يعرف الإسلام حق المعرفة لتعرف اليهودية والنصرانية أيضاً على الوجه المقبول ، وذلك بالتوفيق بين التوراة والانجيل والقرآن ، كما وفقنا فى الجزء الخامس لا بالاستدلال بالقرآن على صدق التوراة والانجيل ، ثم الاستدلال بما يسمونه توراة من تلك الكتب الكثيرة التى ألف أكثرها بعد صاحب التوراة ، وبالكتب والرسائل الكثيرة التى يسمون مجموعها إنجيلا على تكذيب القرآن ، لأن هذا الصنيع يعود على الموضوع بالنقض فيبطل الدليل نفسه ، وأقل ما يقال فيه « تعارضا تساقطا » وتكون النتيجة إبطال الجميع ، أى أن القرآن هو الدليل على صحة التوراة والإنجيل . والقرآن ليس من الله (بزعمهم) فشهادته غير حق ، ودلالته غير صحيحة . وسنعود إلى الكلام على (كتاب أبحاث المجتهدين) وعلى جريدة (بشائر السلام) بما يؤلف بين الأديان ، ويدعو إلى إزالة الأضغان .

المقالة الثالثة

مقابلة بين الإسلام والنصرانية فى مقاصد الدين الثلاثة

بينا فى الجزءين الخامس والعاشر ، المراد بالتوراة والإنجيل عند المسلمين، وهما اللذان يشهد لهما القرآن الكريم وبينا أنه لا تنهض للمسيحيين حجة على إثبات دينهم وكتابهم ، ونبوة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام إلا من القرآن، ولايكون القرآن حجة إلا إذا كان من عند الله تعالى، فعليهم أن يؤمنوا به ويأخذوا بإصلاحه ليكونوا معناموحدين لله تعالى نعبده وحده من دون البشر كالمسيح وغيره، وندعو سائر الوثنيين إلى هذا الإيمان، الذى هو غاية إرتقاء العقل البشرى ، وفيه السعادة والنجاة فى الآخرة مع العمل الصالح الذى يستلزمه . وقد بينا بالدليل المعقول نبوة نبينا ﷺ وكون ما جاء به وحياً فى درس التوحيـــد الذى نشر فى الجزء الماضى ، وسنزيده بياناً فى الدروس الآتية إن شاء الله تعالى . هؤلاء المبشرون يدعوننا إلى البحث فى الدين أو يدعوننا أن نؤمن بأن بعض الأنبياء إله كامل وإنسان كامل ، وأن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة حقيقة ، وإن كان العقل ينكر ذلك ويحيله وهو محل الإيمان ، وأن ننكر بعض الأنبياء ونجحد نبوته بالمرة وإن قام عليها أقوى البراهين فإن كانوا يبحثون لإظهار الحق لأجل اتباعه فليجعلوا العقل أصلا ويحكموه فى الدلائل ، وإلا فبماذا يميز بين الحق والباطل ؟ إن قالوا كتب الدين نقول (أولا) بماذا تثبت هذه الكتب ؟ فإن قالوا بالعقل نقول لزمكم أن العقل هو الأصل ، ولا يتأتى أن يحكم بصحة كتاب يشتمل على ما هو مستحيل عنده . و (ثانياً) إذا كانت كتب الأديان التى تناظرون فيها متفقة فالدين واحد، وإلا فبماذا يرجح بعضها على بعض ؟ أليس بالعقل الذى يبين أيها أهدى وأنهض بما يحتاج إليه البشر من الدين،

للدين ثلاثة مقاصد : تصحيح العقائد التى بها كمال العقل ، وتهذيب الأخلاق التى بها كمال النفس ، وحسن الأعمال التى تناط بها المصالح والمنافع وبها كمال الجسد . فإذا حكمنا عاقلا لم يسبق له تقليد المسلمين ولا تقليد النصارى فى الدين وكلفناه أن ينظر أى الدينين وفى هذه المقاصد الثلاثة حقها بحسب العقل السليم فبماذا يحكم ؟

يرى المسلمين مجمعين على أن العقائد لا بد أن تكون أدلتها يقينية لأن كتابهم يقول فى الظن الذى هو دون مرتبة اليقين فى العلم ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً،

ويقول فى الذين احتجوا على شركهم بمشيئة الله تعالى « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون » ويقول « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ويقول عند ذكر الآيات التى يقيمها على العقائد « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » أى العقول . ويرى المسيحيين مجمعين على أن أصل اعتقادهم فوق العقل ، وأنه يحكم باستحالته وعدم إمكان ثبوته ، ولا شك أن هذا العاقل يحكم بأن عقائد المسلمين هى الحقة الصحيحة ، ولا يلتفت إلى قول صاحب إبحاث المجتهدين وغيره : « إن ذلك بحث فى كنه ذات الله تعالى ولا يعرف كنه الله إلا الله باتفاق المسلمين وغيرهم » : لأن فرقا عظيما بين ما يثبته العقل بالدليل ولكنه لا يعرف كنهه وبين ما ينفيه ويجزم بعدم إمكان تحققه . ومثال ذلك أننا نثبت المادة بصفاتها وخواصها وآثارها ولا نشك فى وجودها ، ولكننا لا نعرف كنه حقيقتها بل لم يصل العقل الى معرفة كنه شيء من هذه المخلوقات ، وانما عرف الظواهر والصفات . كذلك التوراة تصف الله تعالى بصفات يرفضها العقل ، كقوله فى الباب السادس من سفر التكوين « فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه فقال امحوا عن وجه الأرض الإنسان الذى عملته » وهذا يدل على أنه كان جاهلا وعاجزاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثم ينظر هذا العاقل ، والحكم العادل فى المقصد الثانى وهو تهذيب الأخلاق ، فيرى التعاليم الإسلامية فيه قائمة على أساس العدل والاعتدال من غير تفريط ولا افراط ، مع استحباب العفو والصفح والإحسان لقول كتابهم : « ان الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » فسر البيضاوى الفحشاء بالإفراط فى قوة الشهوة البهيمية والمنكر بالإفراط فى قوة الغضب الوحشية . وقوله « اعدلوا هو أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم » وقوله « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة عامة وخاصة . ويرى التعاليم المسيحية مبنية على التفريط والإفراط . يقول كتابهم « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم » كما فى انجيل متى ٥ : ٤٤ وهذا افراط فى الحب لا يقدر عليه البشر لأن قلوبهم ليست فى أيديهم ، ويقول انجيل لوقا ١٩ - ٢٧ « أما أعدائى أولئك الذين لم يريدوا أن أحكم عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم تحت أقدامى » وفى الباب ١٤ من انجيل لوقا ، ٢٥ وقال لهم إن كان أحد يأتى إلى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده

وأخوته حتى نفسه أيضاً فلايصلح أن يكون لى تلميذاً، وهذا تفريط فى الحب إفراط وغلو فى البغض ومثل هذا كثير . ولاشك أن هذا العاقل يحكم لدين الاعتدال على دين التفريط والإفراط لأن الأول يرقى النفوس البشرية ويعزها كما قال تعالى « ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين » والآخر يذلها ويذلها كما قال « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » وغير ذلك مما فى معناه .

وأما المقصد الثالث وهو الأعمال الحسنة التى ترقى النوع الإنسانى فى روحه وجسده فيرى فى الإسلام كل عبادة منها مقرونة بفائدتها ككون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وكون الصوم يفيد التقوى وكون العبادة فى الجملة رضى الله تعالى لقوله «وابتغاء مرضاتى » إلى غير ذلك مما يزكى النفس ويرقى الروح ، ولا يرى مثل هذا فى كتب الآخرين وإنما يرى فى التوراة — التى هى كتاب الأحكام المسيحية ولكن المسيحيين يؤمنون بها قولا لا فعلا — أن أحكام العبادات معللة بالحظوظ الدنيوية كقولها فى الباب الرابع من سفر التثنية ٤٠ « واحفظ فرائضه التى أنا أوصيك بها اليوم لكى يحسن إليك وإلى أولادك من بعدك » وكتعليل مشروعية الأعياد فى الباب ٢٣ من سفر الخروج من العدد ١٤ — ١٦ بالحصاد والزراعة وبالخروج من مصر . فأين هذا من بيان حكمة عيد الفطر فى قوله تعالى « ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

ويرى أحكام المعاملات الإسلامية مبنية على أساس قاعدة درء المفاسد وجلب المنافع باتفاق المسلمين وأن كليات هذه الأحكام خمسة يسمونها « الكليات الخمس » وهى حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال ، ويرى أن الشريعة الإسلامية ساوت فى الحقوق بين من يدين بها وغير من يدين بها . ويراها تأمر بكشف أسرار الكون واستخراج منافعه بمثل قوله تعالى « وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه » . ويرى التوراة والإنجيل لم يجمعا هذه المنافع فى أحكامهما بل يخالفانها كثيراً . فالوصية التاسعة « لا تشهد على قريبك بالزور » فأين هذا التقييد بالقريب من أمر القرآن « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » وغير ذلك من الآيات . وفى الباب الرابع عشر من سفر تثنية الاشتراع إباحة المسكر وسائر الشهوات على الإطلاق ونصه : « وأنفق الفضة فيما كل ما تشتهى نفسك فى البقر

والغنم والمسكر وكل ما تطلب منك نفسك وكل هناك أمام الرب وافرح أنت وبيتك » . وفى الباب السادس من إنجيل متى « ٢٥ لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وتشربون ولالأجسادكم بماتلبسون » وفى موضوع آخر « لاتشتغلوا من أجل الخبز الذى يفنى » يأمرهم بهذا مع أن الخبز أهم المهمات عندهم حتى أمروا أن يطلبوه فى صلاتهم بقوله « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » فما هذا التناقض .

لا تأمر هذه الكتب بترك الأعمال للدنيا فقط بل ليس للأعمال الصالحة فيها قيمة ولامنفعة مطلقا ،فقد قال بولس فى رسالته إلى أهل رومية ١٤ — ٤ « وأما الذى يعمل فلا تحسب له الأجرة على سبيل نعمة بل على سبيل دين (٥) وأما الذى لا يعمل ولكن يؤمن بالذى يبرر الفاجر فإيمانه يحسب له برا » هذا والله يقول فى القرآن « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » الآية . فهل تنجح الأمم بهذه الأعمال أم بإيمان لاقيمة للعمل معه ؟

وأثبت هذا المعنى بولس فى الباب الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية ، إذ ذكر أن أعمال الناموس تحت لعنة وأنه لا يتبرر أحد عند الله بالناموس وأن الناموس لا لزوم له بعد مجىء المسيح . والمسيح نفسه يقول : ماجئت لأنقض الناموس وانما جئت لأتمم : ولكن المسيحيين عملوا بقول بولس فتركوا التوراة وأحكامها بالمرة ، وقد أباح لهم الرسل جميع المحرمات ماعدا الزنا والدم المسفوح والمخنوق والمذبوح للأصنام (أعمال ١٥ : ٢٨و٢٩) وكأنهم رأوا أن شريعة التوراة لا تصلح للبشر كما قال حزقيال فى الباب العشرين عن الرب : إنه لما غضب على بنى اسرائيل قال « ٢٣ ورفعت يدى لهم فى البرية لأفرقهم فى الأمم وأذريهم فى الأراضى ٢٤ لأنهم لم يصنعوا أحكامى بل رفضوا فرائضى ونجسوا سبوتى وكانت عيونهم وراء أصنام آبائهم ٢٥ وأعطيتهم أيضاً فرائض غير صالحة وأحكاماً لا يحيون بها » وصرح حزقيال قبل هذا بأن بنى اسرائيل عبدوا الأصنام بعد ما أنجاهم الله من مصر فليعتبر بهذا ذلك المبشر المسيحى وذلك اليهودى اللذان أنكرا على ماكتبته فى العدد العاشر من طلب بنى اسرائيل عبادة الأصنام ، وزعما أنه لم يقل بذلك إلا القرآن (ص ٤١١ م ٤) .

المقالة الرابعة

فى كون اليهودية والنصرانية مأخوذتين من الوثنية

ذكرنا فى النبذة الماضية أن عقائد المسيحيين التى هم عليها من عهد بعيد مأخوذة من عقائد الوثنيين ، وقلنا إن الكتب التى يسمى مجموعهـا عند اليهود والنصارى(التوراة) ليست هى التوراة التى شهد لها القرآن الشريف ، وإنما توراة القرآن هى الأحكام التى جاء بها موسى عليه السلام وتوجد ،(أى بعضها) فيما عدا سفر التكوين من الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى، وفيها تاريخه وذكر وفاته، وبينا أنه لا سبيل إلى هروب أهل الكتاب من اعتراض الفلاسفة والعلماء والمؤرخين على كتبهم إلا بالاتفاق مع المسلمين على هذا الاعتقاد . ونذكر الآن كلام بعض فلاسفة فرنسا فى الطعن بالديانتين اليهودية والنصرانية وكتبهما نقلا عن كتاب (علم الدين) الذى ألفه خالد الذكر على باشا مبارك ناظر المعارف سابقاً . قال فى المسامرة الرابعة والتسعين حكاية عن الانكليزى الناقل كلام الفيلسوف الفرنساوى بعد كلام مانصه :

« ويقول إن التوراة كتاب مؤلف وليس من الكتب السماوية متكئاً فى ذلك على قول مارى أغسطس : انه لا يصح بقاء الإصحاحات الثلاثة الأولى على ما هى عليه . وعلى قول أويجين بأن مافى التوراة مما يتعلق بخلق العالم أمور خرافية بدليل أن كلمة (براه) العبرانية وهى بفتح الباء وتشديد الراء وسكون الهاء معناها رتب ونظم ولا يرتب أحد شيئاً وينظمه إلا إذا كان موجوداً من قبل فاستعمال هذه الكلمة فى خلق العالم يقتضى أن مادة العالم كانت موجودة من قبل ، فتكون أزلية ويكون ملازمها وهو الزمان والمكان أزليين . وحيث إنهم قالوا إن المادة ذات حياة فتكون الروح أيضا أزلية لأنها هى التى بها الحياة . وبما أن المادة هى النور والحرارة والقوة والحركة والجذب والقوانين والتوازن فتكون الحياة والمادة كالشيء الواحد لا يمكن انفصالها وجميع ذلك يخالف مافى التوراة .

« ويقول أيضاً إن الستة الأيام التى ذكرها موسى لخلق العالم هى الأزمان الستة التى ذكرهـا الهنود والجنبارات الستة التى ذكرها زروطشت للمجوس

وأن الفردوس الذى كان فيه آدم إنما هو بستان الهيسبريو الذى كان يخفره التنين . وأن آدم هو أديمو المذكور فى ايزورويدام . وأن نوحا وأهله هو الملك دوقاليون وزوجته بيرا وهكذا .

« ويبالغ فى القدح فى التوراة ،ويقول إنها مبتدأة بقتل الأخ أخاه واغتصاب الفروج ، وتزوج ذوى الأرحام بل البهائم وذكر النهب والسلب والقتل والزنا ، ونحو ذلك من الأمور التى لايليق أن تنسب لمن اصطفاه الله تعالى وجعله أمينا على أسراره الإلهية . فانظر إلى اجتراء هذا الرجل على نبى الله موسى عليه السلام وعلى كتاب الله التوراة ، مع أن التوراة هى أساس الانجيل فما يقال فيها يقال فى الانجيل [1] ولذلك يقولون إن رسالة عيسى قد نبهت عليها اليهود من قبل بقولهم إنه سيجىء إليهم مسيح ، وكلمة مسيح ككلمة مسايس . ومسايس لقب شريف باللغة العبرانية ، وقد لقب به أشعيا كيروس ملك الفرس كما فى الاصحاح الخامس والخمسين، ولقب به حزقيال النبى ملك مدينة سور،ومع ذلك فلم يلتفت هذا الرجل إلى شىء من ذلك فقال ماقال

« ومن اعتقادات النصارى أيضا أن الله تجسد فى صورة عيسى وأنه هو الإله وليسوا أول قائل بهذا التجسد بل قيل قبلهم فى جزاكا وبرهمة بقدس الهند وقيل فى ويشنو إنه تجسد خمسمائة مرة . وقال سكان البيرو من أمريكا إن الإله الحق تجسد فى إلههم أو دين . وإن ولادة عيسى من بكر بتول فتح روح القدس يشبه قول أهل الصين إلههم فوية ولدته بنت بكر حملت به من أشعة الشمس . وكان المصريون يعتقدون أن أوزريس ولد من غير مباشرة أحد لأمه .

« وقول النصارى إن عيسى مات ودفن ثم بعث ورفع إلى السماء حيا ، قال بمثله قبلهم المصريون فى أوزريس المصرى وفى أوزونيس من أهالى فينكية ، وفى أوتيس من أهالى فريجية ، إلا أنهم لم يقولوا برفعه إلى السماء . وكما قيل إن أودين كان قد بذل نفسه وقتلها باختياره بأن رمى نفسه فى نار عظيمة حتى احترق وفعل ذلك لأجل نجاة عباده وأحزابه . فكذلك النصارى يعتقدون أن حلول الإله فى

---

(١) المنار : هذه الجملة ومابعدها من كلام الانكليزى . ولا شك ان ابطال التوراة يستلزم ابطال الانجيل ولا يمكن التخلص من ذلك إلا بالاسلام .

عيسى وإرساله وموته إنما كان لأجل فداء الجنس البشرى وتخليصه من ذنب الخطيئة الأولى خطيئة آدم وحواء ، وأما ادريس النبي فقدرفع إلى السماء بدون أن تكفر عنه الخطيئة، ولا شك أن هذا خرافة ولهم كلام كثير من هذا القبيل يطول شرحه ولا فائدة فى ذكره ، .

(المنار) لهذه الشبهات بل الحجج على عقائد المسيحيين واليهود ترك علماء أوربا الدين المسيحى، فبعضهم صرح بتركه بل وبعض حكوماتهم، فإن الحكومة الفرنساوية أعلنت إعلانا رسميا بأن لا دين لها ،وطاردت رجال الدين واضطهدتهم ، ومن بقى يتظاهر بالدين من عظمائهم فإنما هو لأجل السياسة ولذلك ترى الفلاسفة والعلماء الذين يعبأون بالسياسة يصرحون بعدم الاعتقاد بالوحى مع اعتقادهم بأن الدين ضرورى للبشر ولكنهم لم يجدوا فى الدين عندهم غناء . ودين الفطرة محجوب عنهم فإنهم ترجموا القرآن الكريم ترجمة فاسدة لم يفهمو منها حقيقة الإسلام . أذكر من ترجمة انكليزية قول المترجم لسورة العصر « إن الإنسان يكون بعد الظهر بثلاث ساعات رديئا أو قبيحاً » ولو فهم فلاسفة أوروبا هذه السورة لجزموا بأنها على اختصارها تغنى عن جميع ما يعرفون من كتب سائر الأديان وهى مفهومة فى الجملة لمن له أدنى إلمام باللغة العربية وهى :

« وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنْسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

إذ يعلم أن المراد بصيغة القسم التأكيد ويعلم أن المراد بالإنسان الجنس وأن الصالحات ما يصلح به حال الإنسان فى روحه وجسده فى أفراده ومجموعه ، وأن التواصى بالحق هو من التعاون على الأخذ به والثبات عليه ، وأن الحق هو الشىء الثابت المتحقق ، وثبوت كل شىء بحسبه ، وأن الصبر يشمل الصبر عن الشىء القبيح كالمعاصى والشهوات الضارة ، والصبر فى الشىء الذى يشق احتماله كالمدافعة عن الحق والمصائب .

كان أهل روسيا وأهل أسبانيا أشد أهل أوربا تمسكا بالمسيحية ثم ظهر أخيراً من اضطهاد الاسبانيين لرجال الدين ما طير خبره البرق إلى جميع الأقطار

واشتغلت به الجرائد فى جميع البلاد . ولما قام الفيلسوف تولستوى الروسى يفند تعاليم الكنيسة الارثوذكسية ، ويبين بطلان الديانة المسيحية انتصر له المعلمون للعلوم والفنون حتى تلامذة المدارس وتلميذاتها . فهذا هو شأن الديانة المسيحية كلما ازداد المرء علما ازداد عنها بعدا ، وإنما كانت أوربا مسيحية أيام كانت فى ظلمات الجهل والغباوة . وبعكسها الديانة الإسلامية هى حليفة والعلوم وقد كانت أمتها فى عصور المدنية والعلم أشد تمسكا بالدين ، وصارت تبعد عن الدين كلما بعدت عن العلم .

أما الآن فإننا لا ننكر أن بعض المتعلمين على الطريقة الأوربية قد وقعوا فى بعض الشبهات ، وبعضهم أنكر الدين تبعاً للأوربيين الذين أخذ عنهم ، ولكن السبب فى هذا أنه لم يعرف الإسلام ، ولم يتعلمه قبل العلم الأوربى ولا بعده ، ولهذا نطالب علماء ديننا بأن يجتهدوا فى جعل زمام تعليم العلوم الكونية بأيديهم ، لأننا نثق أتم الثقة بأنه لا يمكن أن يرجع عن الإسلام من يعرفه ، وكيف يختار الظلمة من عاش فى النور . وإن لنا لعودة إلى الموضوع إن شاء الله تعالى (راجع صحيفة ٤٤٨ م ٤) من المنار .

المقال الخامس

فى الرد على كتاب أبحاث المجتهدين

استدلاله بالقرآن على صحة التوراة والإنجيل

لو أراد الإنسان أن يناقش هؤلاء المسيحيين الذين يؤلفون الكتب فى دعوة المسلمين إلى النصرانية ويحكم العلم فى مصنفاتهم فيرد على كل خطأ يجب رده لاحتاج أن يكتب على كل صحيفة من صحائفهم السوداء كتاباً مستقلا لأنهم يرمون الكلام على عواهنه فيخطئون من حيث يدرون ومن حيث لا يدرون ، ويتعمدون الإيهام والتغرير لأنهم يكتبون للعامة الذين لا يدققون .

يقول صاحب كتاب [ابحاث] الجدليين لا [المجتهدين] فى الفصل الأول من البحث الأول : إنه يثبت صحة التوراة والإنجيل [بالحجة الدامغة والبرهان

المنطق] ثم يورد الآيات القرآنية وهى عنده جدلية لا منطقية ويحرفها عن معناها كما حرف هو وسلفه التوراة والإنجيل ، وقد بينا من قبل معنى التوراة والإنجيل وإثبات القرآن لهما وكون هذا الإثبات لا ينافى إرسال نبى آخر بشريعة جديدة أكمل منهما وبينا أيضا وجه كون الديانة الإسلامية أصلح لحال البشر واهدى لسعادتهم بل وبينا كيف أبطل بولس شريعة التوراة والإنجيل وجعل المسيحية إباحية لا قيمة فيها للعمل الصالح وإنما العمدة فيها على الإيمان بأن المسيح جاء ليخلص العالم .

فكيف جاز عند محبينا من دعاة المسيحيين أن يبطل هذا الرجل اليهودى بذلاقة لسانه وخلابته شريعة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ولا يجوز فى نظرهم أن يرسل الله محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام بالبراهين العقلية فيصدق المرسلين ، ويقضى على المارقين ، ويؤنب المحرفين ، ويبين الحق فى اختلاف المختلفين ، ويخاطب اليهود والمسيحيين . بمثل ماخاطب عيسى الكتبة والفريسيين ، بأنهم لم يقيموا الكتاب ، بل أخذوا بالقشر وتركوا اللباب ، وأنهم لو اقاموه لما سامت حالهم ، ولما وجب خزيهم ونكالهم ، ولكن اليهود والنصارى كانوا فى زمن البعثة فى أشد الخزى والنكال ، وعند آخر طرف من الغواية والضلال ، ولذلك تقلص بشمس الإسلام ظل سلطانهم بعد حين ، [وكان حقاً علينا نصر المؤمنين] .

أورد صاحب الأبحاث سبع آيات من القرآن المجيد وقال إن الآية الأولى تفيد أن الله تعالى انزل التوراة والإنجيل هدى للناس . نعم وقد اهتدى بهما من قبل اقوام فسعدوا ثم حرفوا وفسقوا ، وانحرفوا فشقوا ، حتى جاء الإسلام بالهداية الكبرى ، والحجة العظمى ، فاهتدى به بعضهم فسعدوا وسادوا على الآخرين ، وكانوا مع اهله الأعلين ما كانوا به مهتدين .

وقال إن الآية الثانية وهى : « يا اهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التواة والإنجيل » تبين صحتهما ، وهو كذلك ولكن الآية تتمة لم يذكرها المصنف لأنه غير منصف وهى قوله « وما انزل إليكم من ربكم » فكأنه يأمرنا أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض كما فعل هو ومن على شاكلته بالتوراة . والمراد بما أنزل إليهم من ربهم القرآن فإنه لم ينزل بعد التوراة والإنجيل غيره فالله تعالى يأمر

أهل الكتاب بان يكونوا مسلمين يؤمنون بالكتب كلها وبين أن تعللهم واحتجاجهم على عدم اتباع القرآن بأنهم أصحاب كتاب سماوى لاحاجة لهم بغيره احتجاج باطل وتعلل كاذب،لأنهم لم يقيموا التوراةوالإنجيل،وأوضحهذا بالآيات الأخرىالناطقة بأنهم حرفواوبأنهم نسوا حظاًمما ذكروابهوأنهملوأقاموهما لما حل بهم الخزىوالنكال «ولو أنهم أقاموا التوارة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » وكذلك وقع لأخوانهم الذين أسلموا فقد فازوا ببركات السماء والأرض ، وتتمه الآية التى نحن بصددها « وليزيدن كثيراً منهمماأنزل إليك من ربك طغياناً وكفراًفلا تأس على القوم الكافرين » وهذه الحجة قائمة عليهم إلى يوم القيامة فإن هؤلاء الدعاة يخدعون عوام المسلمين بوجوب اتباع التوراة ويوهمونهم أنهم متبعون لها.ويقول صاحب الأبحاث : إن محمداً يطلب إقامة حدودها، ولايوجد فى الدنيا نصرانى يقيم حداً من حدود التوراة أو يعمل بأحكامها فى العبادات أو المعاملات . فما لهم يشفقون على المسلمين وينصحون لهم بإقامة هذه الحدود ولا ينصحون لأنفسهم ولا يشفقون عليها ؟ ؟ .

وقال: والثالثة تبين أن الإنجيل منزل من عند الله وأن محمداً راضخ لأحكامه ، والآية الثالثة هى قوله تعالى : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » وليس فيها إخبار بأن محمداً عليه الصلاة والسلام راضخ لأحكامه ولكن هؤلاء الناس يستبيحون أن يحملوا الآيات مالا تحمله لتأييد أهوائهم وبذلك أفسدوا كتبهم وجاؤا يفسدون علينا كتابنا ولكن الله تعالى حفظه من التحريف والتبديل فى الآية قراءتان إحداهما بكسر لام (ليحكم) وهى متعلقة بقوله تعالى قبلها « وآتيناه الإنجيل » أى أعطينا عيسى الإنجيل ليحكم أهله فيه وأهله هم بنو إسرائيل لأن القرآن أخبرنا بأنه أرسل إلى بنى إسرائيل فعرف أنهم أهله وكذلك الإنجيل الذى عندهم الآن يقول إن المسيح قال « لم أبعث إلا إلى خراف إسرائيل الضالة » .

والقراءة الثانية بسكون اللام وهى حكاية للأمر السابق عند الإيتاء أى آتيناه الإنجيل وأمرنا من أرسل إليهم بالعمل به . ويحتمل اللفظ أن يكون أمراً مبتدأ ورد على سبيل الإحتجاج على النصارى بعدم العمل بالإنجيل المصدق للتوراة والمقتضى للعمل بها على ماتقدم بيانه آنفاً . وإذا جاز لدعاة المسيحيين اليوم أن يحتجوا على المسلمين بأن القرآن يأمرهم بالإيمان والعمل بالتوراة والإنجيل ولا يرون

هذا الاحتجاج مقتضياً لإيمانهم بالقرآن فكيف يدعون أن امر محمد ﷺ لهم بالحكم بالإنجيل يستلزم أن يكون هو راضخاً لأحكامه ؟؟ اهـ (ج١٤ص٥٣٦م٤) .

المقالة السادسة

فى الآيات الواردة بشأن التوراة والإنجيل

ذكرنا فى النبذة السادسة أن صاحب كتاب الأبحاث أورد سبع آيات من القرآن العزيز وحرفها عن مواضعها لإثبات كتب اليهود والنصارى وإلزام المسلمين باعتقادها والأخذ بها وبينا فيها تحريفه وكون الآيات حجة للمسلمين على اليهود والنصارى لا العكس بالكلام على ثلاث آيات منها وفى هذه النبذة نتكلم على باقيها .

قال « والرابعة تحكم بضلال المسلم الذى لا يؤمن بالتوراة والإنجيل إيمانه بالقرآن» ونقول إن الآية الرابعة هى قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل » والمسلمون يعتقدون أن نبيهم جاء بالحق وصدق المرسلين وأمر أن نؤمن برسل الله وكتبه السابقة ولكن لم يكلفنا بالعمل بتلك الكتب لأنه اغنانا عنها بكتاب أهدى منها لا نحار فى روايته ، ولا نضل فى درايته مشتمل على جميع مافيها من صحيح الاعتقاد معصوم من التحريف والتبديل ؛ محفوظ من الضياع والنسيان ، حاو لما لا يوجد فيها من المعارف الإلهية كما سنبينه بعد إن شاء الله تعالى ، خال من الإضافات التاريخية والآراء البشرية ، التى ألحقت بما بقى من الكتب السماوية .

على أن هذه الآية قد اختلف المفسرون فى المخاطبين بها فقيل هم المنافقون المؤمنون فى الظاهر المرتابون أو الجاحدون فى الباطن كأنه يقول لهم :أيها المدعون الإيمان بالله وكتابه ورسوله وسائر كتبه ورسله بأفواههم وظواهرهم عليكم أن تؤمنوا بقلوبكم وتطابقوا بين ظواهركم وبواطنكم ، وقيل : هم مؤمنوا أهل الكتاب لما روى من أن ابن سلام وأصحابه قالوا : يارسول الله إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزيز ونكفر بما سواه فنزلت الآية . وقيل هم المسلمون مطلقاً ولا يعتد المسلمون بإيمان مسلم إذا أنكر الأنبياء السابقين أو كذب كتبهم ولكنهم لا يكلفون بالبحث عنها والعمل بها لأن الله تعالى أغنانا عنها كما قلنا ولأنه قد ضاع بعضها ونسى كما قال

تعالى : «فنسوا حظاً مماذكروا به » وحرف بعضها كما قال سبحانه « يحرفون الكلم من بعد مواضعه » وكيف نأخذ بكتاب نسى حظ عظيم منه ربما كان مبيناً ومفسراً للباقى أو فيه ماليس فيه مما لابد منه فيكون أخذنا به على غير وجهه أو يكون ديننا ناقصاً ويصدق علينا قوله تعالى فى اهل الكتاب «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » الآية . ونكتفى هنا بالإستدلال على نسيان أهل الكتاب حظاً منه بالقرآن الكريم لأن كلامنا مع الخصم فى دلالة القرآن على صدق الكتب وسنثبته بعد بشهادة تلك الكتب وأقوال رؤساء الديانة النصرانية .

قال « والخامسة تبين أن أهل مكة كانو يعرفون التوراة والإنجيل كما كانوا يعرفون القرآن » ونقول إن هذه الآية هى قوله تعالى «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه » ، ولا دلالة فيها على ماذكر حتى على تقدير أن المراد بالذى بين يديه ، الكتب المتقدمة لأن سبب رفضهم الإيمان هو دعوة القرآن ومن جاء به إلى ذلك الإيمان أى أنهم قالوا : إننا لانؤمن بالكتاب الذى جئت به يامحمد وقلت إنه من عند الله ولا نؤمن بالكتب التى قلت إنها جاءت قبلك من عند الله . فأين الدليل فى هذا على أن أهل مكة كانوا يعرفون التوراة والإنجيل بذاتهما ويتدارسونهماوهم أميون لا يوجد فيهم ، بل ولا فى العرب كافة من يكتب إلا أفراد لا يبلغون طرف جمع القلة (قيل إنهم كانوا ستة نفر) والوجه الثانى فى تفسير قوله تعالى ، «ولا بالذى بين يديه» انه يوم القيامة وما يتلوه من الثواب والعقاب وهو الأظهر .

قال « والسادسة تبين إقرار محمد بصحة الكتاب ومساواته إياه بالقرآن » ونقول إنه أورد الآية السادسة هكذا (قل فأتوا بكتاب هو أهدى منهما «القرآن والإنجيل» اتبعه) فأنظروا ايها المنصفون إلى أمانة هؤلاء الناس فى النقل وإلى تحريفهم فى المعنى وهم يخاطبون المسلمين ويعرفون حرصهم على القرآن العظيم وقد أنزل الله تعالى الآية هكذا : (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين) أى أهدى من القرآن والتوراة لا الإنجيل كما زعم مصنف كتاب الأبحاث والدليل على ذلك قوله تعالى قبل هذه الآية (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما اوتى موسى أو لم يكفروا بما

أوتى موسى من قبل . قالوا ساحران (وفى قراءة سحران) تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ، وحكاية إسناد الكفر بموسى إليهم بيان طبائع الأمم وتشابه أطوار البشر حتى كأن الحاضر عين الماضى ، ولذلك قال الحكماء ، التاريخ يعيد نفسه ، والآيات حجة على المكابرين ، وبرهان قاطع لألسنة المعاندين ، وليس فيها مايدل على المساواة بين القرآن والتوراة فى كل شىء فإن تعجيز المشركين بالإتيان بكتاب من عند الله أهدى مما جاء به موسى ، ومما جاء به محمد لايقتضى أن ماجاء به أحدهما مساو لما جاء به الآخر أرأيت لو قيل لجاهل بعلم المنطق ينكر على علمائه وكتبه . ائت لى كتاباً فيه يكون خيراً من كتاب إيساغوجى وكتاب البصائر النصرية: أتقول أن هذا القول يدل على أن الكتابين متساويين من كل وجه ؟ ؟

وقال : « والسابعة تبين الإقرار الصريح على أن التوراة صحيحة سالمة فيها حكم الله وأن متبعها ليس فى حاجة إلى أن يحكم أحداً سواها » ونقول إن الآية السابعة هى قوله تعالى « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله » هذا ما أورده المصنف منها وتتمتها « ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » وهى لاتدل على ماقاله لما نبينه هنا تبييناً .

الآية واردة فى التعجيب من حال اليهود الذين يحكمون النبى ﷺ فى بعض أمرهم وهم غير مؤمنين به كالذين طلبوا حكمه فيمن زنى من اشرافهم وقالوا : إن حكم بالجلد أخذنا بحكمه . وإن حكم بالرجم فلا نأخذ به . مع أن حكم الزانى منصوص عندهم فى التوراة ولكنهم يريدون اتباع الأسهل والأخف.ووجه التعجيب أن هؤلاء القوم ليس لهم ثقة بدينهم ولا إذعان لكتابهم فهم يحكمون صاحب شريعة غير شريعتهم التى يقولون إنها من عند الله وفيها حكمه بين أيديهم ومن العجيب أنهم لا يقبلون حكمه إذا هو وافق ماعندهم وهذا نهاية البعد عن الإيمان الصحيح الخالص بكتابهم ، ولذلك قال تعالى بعد استفهام التعجب من تحكيمهم « ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » أى ليس إيمانهم بكتابهم صحيحاً ، لأنهم أعرضوا عنه أولا فتحاكموا إليك يامحمد ، ثم أعرضوا عن حكمك الموافق له ثانياً ، أو النفى لصفة الإيمان عنهم بالإطلاق فيدخل فيها ماذكر ويدخل فيها الإيمان بالنبى ﷺ ، وما جاء به أى أنهم فسدت نفوسهم ، وبطلت ثقتهم بالدين مطلقا حتى لا يرجى منهم أبدا .

وظاهر أن القول بوجود حكم الله أو أحكام متعددة فى كتاب لا يقتضى أن يكون ذلك الكتاب كله صحيحاً سالماً من التحريف مشتملا على جميع ما أنزله الله تعالى . فإننى أقول إن كتاب السيرة الحلبية مثلا فيه حكم الله . ولا أعتقد أن كل ما فيه من الله تعالى وأنه سالم من التحريف ولا حاجة لغيره بل أعتقد مع هذا أن فيه أقوالا اجتهادية وآراء للمؤلف ، وتقولا لا تصح ، وأننا فى حاجة إلى غيره . (اه ص ٥٧٤ م ٤) .

المقالة السابعة

فى الرد على مجلة بشائر السلام

وفيه المفاضلة بين اليهود والمسلمين ، وتفضيل محمد على موسى وسائر النبيين

فرغنا فى الجزء الماضى من دحض شبهات الفصل الأول من البحث الأول من كتاب أبحاث المجتهدين وهو الذى عقده مؤلف الكتاب لإثبات الكتب التى يسمونها التوراة والإنجيل بشهادة القرآن وكنا عازمين على أن نبدأ فى هذا الجزء بإبطال شبهات الفصل الثانى الذى عقده لإثبات تلك الكتب بالعقل ، وإذ ورد علينا الجزء الخامس من المجلة البروتستنتية المسماة بشائر السلام فرأينا فيها طعناً شديداً بالإسلام ، وسبحاً طويلا فى بحار الأوهام ، أحببنا أن نقذف عليه بالحق ، ليدمغه فيزهق ، ونعود إن شاء الله تعالى إلى انتقاد ذلك الكتاب فى الأجزاء التالية . وهذا الطعن محصور فى ثلاث نبذ .

النبذة الأولى عنوانها شجرة النسل المبارك

هذه النبذة تابعة لمقالة سابقة يمدح فيها بنى إسرائيل ويبين فضلهم وقد أعطاهم فوق قدرهم ولكنه ما قدر الله حق قدره — عظمهم وأساء الأدب مع الله تعالى ، مدح الشجرة الإسرائيلية . وقدح فى مقام الألوهية ، وله فى ذلك كلام « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » فمنه قوله — وحاكى الكفر ليس بكافر — : « أولا تقضى من ذلك العجب أن فاطر السموات والأرض يختلى مع بنى إسرائيل فى البرية يخاطبهم ويخاطبونه ويراهم ويرون بجده

وبينهم موسى الكليم يتجاذب معه أطراف الحديث ويتبادل فصول الخطاب كالألفين المتآلفين والخليلين المتصافيين ، ثم انتقل من هذا إلى غمض سيد المرسلين وخاتم النبيين الذى أكمل الله به الدين وإلى انتقاص جميع العالمين . فقال : (فاسمع أيها القارىء المسلم وابهت وادهش أليس محمد عندك أعظم الخلق ، فلم يكن أهلا لأن يخاطب الله رأسا ، أو يسمع صوته ، أو يرى مجده مثل عامة إسرائيل فضلا عن خاصتهم ، بل لم يكن خليقاً أن يخاطب جبرائيل (كما قلتم) إلا وتغشاه غيبة وغطيط يبلغان منه الجهد ويتفصد لذلك جبينه عرقاً فى اليوم الشديد البرد) ، انتهى خلطه وخبطه .

ونقول إن هؤلاء الناس ، تأصلت فيهم الوثنية ، ورسخت جذورها فى أعماق نفوسهم حتى صار انتزاعها متعذراً ما داموا لا يقيمون للعمل وزنا ، ولا يرون له فى كتب الدين معنى ، وتفصيل القول فى بيان بطلانهم يطول ولا تفى به مجلتنا كلها ولذلك نكتفى بالإجمال فنقول بلسان العقل المحض ، لا بلسان الإسلام ليكون أدعى للقبول :

(١) إن المسلمين ينقلون أن نبيهم محمداً ﷺ صعد إلى السماء ورأى من آيات ربه الكبرى ، بل يقول أكثرهم إنه رأى الله سبحانه وتعالى بلا كيف وكلمه بلا واسطة . وموسى (عليه السلام) ومن كان معه من بنى إسرائيل إنما رأوا بروقاً ، وسمعوا رعداً وبوقاً ، وغشيهم دخان كدخان الأتون ، وارتجف بهم الجبل فارتعدوا ووقفوا من بعيد « وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » بل قال الرب « اذهب انحدر ثم اصعد أنت وهارون معك وأما الكهنة والشعب فلا يقتحموا ليصعدوا إلى الرب لئلا يبطش بهم » كل هذا مصرح به فى الباب ١٩ و ٢٠ من سفر الخروج وهو يكذب قول المجلة إن عامة بنى إسرائيل كانوا يخاطبون الله رأساً ويسمعون صوته فماذا هذا التمويه والإيهام ؟ وورد فى القرآن « وخر موسى صعقاً » وقال فى محمد (ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، فهل من الإنصاف أن تقولوا نحن الصادقون لأننا قلنا . .

(٢) إن بنى إسرائيل الذين خصوا بهذه العناية وهرون الذى أذن له الرب أن يصعد مع موسى وحده من دون الكهنة والشعب لم يتمسكوا بأعظم الوصايا

التى أوصاهم بها الرب يومئذ بل تركوا أولها فى الذكر والرتبة وهى « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما » الخ ، فإن هرون بزعمكم وزعم كتبكم هو الذى اتخذ لهم العجل فعبدوه من دون الله . ألا يكون هذا الشعب الذى اختص بتلك العناية والتكريم . ثم كفر هذا الكفر الجسيم ، جديراً بالغضب والمقت من الله وسلب نعمته عنه وإسباغها على شعب آخر كالشعب العربى الذى نزع به الوثنية من ملايين من الناس لم تعد إليهم بفضله وكمال نعمته . ومن الأدلة على غضب الرب على شعب إسرائيل ما أوردناه فى النبذة الثالثة (ص ٣١٧ ج ١١) عن كتاب حزقيال . فهل يصح استدلاله بعد هذا على أن الله تعالى وتقدس لا يزال عاشقاً (سبحانه سبحانه) لشعب إسرائيل وغاضباً على سائر خلقه وأن عامتهم أفضل من . . ومن الغريب أنه يستدل بآيات القرآن العزيز على إنعام الله تعالى على بنى إسرائيل ، ولا يستدل بها على كفرهم النعم ورميهم بالنقم !!

(٣) إن القاعدة الأساسية عند المسلمين فى الإيمان هى تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، فإذا ورد فى الوحى لفظ ينافى ظاهره التنزيه يصرفونه عن ظاهره إلى ضرب من التجوز والتأويل . وكأن القاعدة الأساسية عند سواهم هى التشبيه والوثنية لا سيما الذين جعلوا من البشر إلهاً ، فإذا ورد فى كتبهم كلمة تنافى التنزيه يضيفون إليها أضعافها ويتفننون فى القياس عليها . ورد أن الله تعالى كلم موسى مثلا ، فالمسلمون ينزهون الله تعالى عن الصوت وعن الجهة والمكان ويقولون : ما ثم إلا إعلام إلهى بصفة تليق بجلال الله سماها الله تعالى تكليما وليست كتكليم الناس بعضهم لبعض حتما وإلا لكان تعالى مشابهاً للمخلوقات ، وذلك هدم لأصل الدين والإيمان . وأما النصارى فيقولون مثلما نقلنا آنفاً عن مجلة بشائر الإسلام « يتجاذب معه أطراف الأحاديث » وأنهما كالألفين ونحو ذلك مما هو صريح فى التشبيه . ولا غرو فمن قال إن المسيح إله يقول إن الإله يخلو بموسى ويتبادل معه فصول الخطاب » تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا » .

(٤) إن المجلة خلطت فيما ذكرته عن حالة النبى (صلى الله عليه وسلم) عند الوحى لأن ذلك مأخوذ من أحاديث لم يفهمها الكاتب فظن أن كلمة (غطنى) فى حديث بدء به الوحى من الغطيط الذى هو صوت النائم أو صوت هدر البعير وليس كذلك ، وإنما معناه : (ضمنى بشدة وضغط) ثم خلطها بكلمات من حديث

وصف الوحى والتأثر منه . وزعم صاحبها أن عدم التأثر من الوحى أفضل وأكمل وهى دعوى افتجرها لا يقوم عليها دليل فإننا نقول إنها كانت حالة من حالات الوحى ربما لم يحصل نظيرها لموسى فيتأثر تأثر محمد (عليهما السلام) على أنه يوجد فى المفضول مالا يوجد فى الفاضل ، فلوفرضنا أن موسى امتاز على محمد بهذه الفضيلة فلمحمد مزايا كثيرة يفضله بها . ومن التجاوز أن يفاضل مثل هذا الكاتب الذى لا يقدر الله حق قدره بين أنبياء الله (عليهم الصلاة والسلام) بمجرد الهوى وسوء الفهم .

النبذة الثانية من تلك المجلة فى سيدنا إسماعيل

غمط كاتب المجلة سيدنا إسماعيل عليه السلام فى مقام المفاضلة بينه وبين إسحق . وإذا صح قوله ونقله واستدلاله منهما على أن إسحق أفضل ، وأنه هو الذبيح ، فإن هذا لا يضر بدين الإسلام شيئاً ، ولا يستحق قوله فى هذا المقام أن يصرف فى نقده شىء من الوقت .

النبذة الثالثة مؤلفو العهد الجديد والدعوة إلى الدين

جاء فى قسم الأسئلة والأجوبة من المجلة سؤالان ، أحدهما : أن أحد أصحابهم المسلمين سألهم : « هل بطرس وبولس ويوحنا وغيرهم من كتبة العهد الجديد هم رسل الله ، وهل جاء فى العهد القديم نبوة عن إرسالهم كما جاء عن المسيح » ؟ وكان جواب المجلة أنهم رسل . ونحن نقول ما كان لمسلم يعرف عقيدة الإسلام أن يسأل هذا السؤال لأن الرسول فى اعتقاد المسلمين هو النبى الذى أوحى إليه بدين مستقل وأمر بتبليغه للناس ، والنصارى أنفسهم لا يدعون الرسالة بهذا المعنى لبطرس وبولس وغيرهما من مؤلفى الأناجيل ورسائل العهد الجديد . ولأن المسلمين لا يستعملون لفظ النبوة بمعنى البشارة كما هى مستعملة فى السؤال واستدلوا على رسالة من ذكر بالعجائب . وإنه ليؤثر عن ولى واحد من أولياء المسلمين أكثر مما يؤثر عنهم وعن المسيح عليه السلام ولم يقولوا إن الأولياء رسل .

والسؤال الثانى من صاحب لهم آخر وهو : « لم انفرد المسيحيون بإرسال المبشرين واستمروا على ذلك من عهد ظهورهم إلى الآن » والجواب « أن المسيحية هدى، ومتى كان الهدى فى القلب لا يتمالك صاحبه أن يكاتمه أبناء جنسه أو يواريهم فيه » ثم قال إن المسيحيين منفردين بالهدى ، ونحن نقول .

(أولا) إنه ما قام دين من الأديان فى العالم إلا بالدعوة ، وما دعا أحد إلى دين إلا ووجدله تابعين ، ولكن منها ما انتشر بقوته الذاتية أى قوة الهداية والسلطان على النفوس كالإسلام ومنها ما انتشر بالإكراه والإلزام كالدين المسيحى فإنه بقى ثلاثة قرون لا يقبله إلا أفراد قليلون ، ثم دخل فيه بعض ملوك الوثنيين فصاروا يلزمون الناس به بالإكراه كما سنبينه بعد إن شاء الله تعالى بشهادة التاريخ .

(ثانيا) إن بنى إسرائيل شعب الله الخاص الذين نوه بهم صاحب المجلة ما كانوا يدعون لدينهم حتى فى عهد المسيح الذى هو منهم فهل كانت ديانتهم فى ذلك العهد ضلالة أم هداية ؟ .

(ثالثاً) إن البهائية الذين يقولون فى البهاء المدفون فى عكا كما يقول النصارى فى المسيح يدعون إلى دينهم فى كل مكان وجدوا فيه ، حتى يوشك أن يكون كل واحد منهم داعيا ، فهل يقول أصحاب هذه المجلة إنهم على هدى وإنه يجب عبادة البهاء وترك عبادة المسيح أو الجمع بينهما .

(رابعا) إن الجواب يستلزم أن يكون كل مسيحى داعياً إلى دينه لأنه على هدى وصاحب الهدى لا يقدر على كتمانه ، ولكننا نرى الدعوة محصورة فى أفراد منهم يأخذون عليها الأجر من الجمعيات الدينية فهم يدعون ، لأن الدعوة معاش لهم لا لأنها هدى فى قلوبهم يفيضون منه على أبناء جنسهم .

(خامسا) إننا نرى المسيحيين الفضلاء ينتقدون هؤلاء الدعاة المسيحيين المستأجرين ويقولون إنهم يضرون المسيحية ولا ينفعونها ، ومن أصحاب الجرائد من انتقدهم كتابة .

(سادسا) إن كل صاحب دين يعتقد أنه على هدى والإنسان إنما ينبعث إلى العمل باعتقاد نفسه لا بما عليه الأمر فى نفسه ، ولولا ذلك لم يعمل أحد شرا ولم يدع أحد إلى باطل . ولكن قد تحول دون الدعوة الحوائل .

أما الدعوة الصحيحة التى اندفع إليها أصحابها بقوة الإعتقاد فهى دعوة حواريى المسيح عليه الصلاة والسلام وما آمن معهم إلا قليل ودعوة المسلمين عدة قرون ، آمن فيها الملايين . فقد كان التاجر المسلم يدخل مملكة من ممالك إفريقيا أو آسيا فتدخل كلها فى الإسلام على يديه . ولم تنقطع هذه الدعوة بالمرة ولكنها ضعفت بضعف الإسلام وفقد التربية الدينية وإهمال علومه الحقيقية وضعف المدنية والحضارة وإهمال دول الإسلام أمر الدين واعتماد المسلمين على ملوكهم وأمرائهم

وحكوماتهم على خلاف ما يفرضه الإسلام عليهم ، ولا يزال الشيعة والبهر (الإسماعيلية) يدعون بقدر الطاقة . وهؤلاء الملوك والأمراء هم العقبة الأولى فى طريق الإسلام ، والعقبة الثانية ملوك أوربا الأقوياء الذين ينصرون دعاتهم ويحمونهم بعد أن يوجهوهم إلى الدعوة ، حتى إنهم ليحاربون مملكة بحجة الانتصار لقسيس واحد فالقوة الأوربية هى التى أنطقت لسان هؤلاء الدعاة ، وهى التى أجرت أقلامهم ، وسددت لرمى مخالفيهم سهامهم ، فتبين أن جواب السؤال الصحيح هو أن المسيحيين يبشرون لأن السياسة تدفعهم ، والجنيهات تتبعهم ، والمدافع تمنعهم ، (أى تحميهم) وأما المسلمون فإنهم على ضعفهم العلمى والإجتماعى والسياسى لا يزالون يدعون إلى الدين بدافع الاعتقاد ، ولكن على ضعف تؤيده قوة الحق فيكون أنجح وأقرب إلى القبول ، وطالما شكا دعاة المسيحيين من تقدم الإسلام فى إفريقيا وسبقه للمسيحية مع شدة العناية بنشرها ، وكان أقرب تعليل لهم فى ذلك أن الإسلام أقرب إلى الفطرة والعقل ، وسننشر بعض كلام القسيسين فى ذلك إن شاء الله اه (ج ١٦ ص ٦١٩ م ٤) .

المقالة الثامنة

فى كتب العهد الجديد

جعل مؤلف الأبحاث الفصل الثانى من المبحث الأول فى إثبات صحة التوراة والإنجيل عقلياً ، وتقرير هذا الدليل أن الله قادر حكيم ، فلا بد أن يضع دستوراً ويكتب شريعة لمخلوقاته العاقلة كى تعلم نسبتها إلى خالقها وواجباتها نحوه وواجبات بعضها نحو بعض ، وتعرف مصير العالمين وقصاص العصاة ، وثواب الطائعين المؤمنين ، لئلا يكونوا فوضى لا وازع لهم ، ولا مشترع كالأنعام يدوس بعضهم بعضا ، وكالأسماك يأكل صغيرها كبيرها ، ويفنى الناس بعضهم بعضا ، وتستوى الفضيلة والرذيلة ، وهذا ما لا يرضى به القادر الحكيم . ثم قال : « فإذا لم يكن ذلك الدستور ، وتلك الشريعة هما التوراة والإنجيل ، فقل لى بعيشك ما هما ؟ هل يوجد كتاب قديم مقدس يفى بالغرض المقصود كالتوراة والإنجيل ؟ كلا لعمرى » .

(المنار) إننا لا نؤاخذ المؤلف على تقصيره فى تقرير وجه الحاجة إلى الشريعة

إذ يعرف القراء هذا التقصير بمقابلته بما كتبناه وما سنكتبه فى بيان الحاجة إلى الوحى من دروس الأمالى الدينية ، ولكننا نذكره بأمور إذا تأملها ظهر له أن حجته داحضة وهى :

(١ و ٢) لماذا ترك الله البشر قبل التوراة ألوفاً من السنين لا نعلم عددها من غير شريعة إذا كان ذلك لا يرضيه ؟ ولماذا لا تظهر حكمته هذه إلا فى بنى إسرائيل من عهد قريب وكل الناس عبيده والعلة تقتضى العموم ؟ : هذان السؤالان يردان عليه وعلى جميع اليهود والنصارى القائلين بقوله ولا يردان على المسلمين لأن القرآن حل هذا الإشكال بقوله تعالى فى الرسل : (منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك) . وقوله : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » فنحن نعتقد أن الله أرسل رسلا فى جميع الأمم التى استعدت بترقيتها إلى فهم توحيده لا يعلم عددهم غيره تعالى .

(٣) هل كان أهل الصين كالأنعام يدوس بعضهم بعضاً ، أو كالسمك يأكل كبيرهم صغيرهم بلا وازع ولا رادع ، أم كانوا أولى مدنية وفضائل قبل وجود بنى إسرائيل وبعدهم ؟ التاريخ يدلنا على أنهم كانوا أرقى من بنى إسرائيل فى العلوم والمعارف والمدنية والنظم التى تحتاج الشريعة لأجلها ، وكانوا أرقى من النصارى أيام لم يكن عند هؤلاء إلا الديانة التى بثها فيهم مقدسهم بولس فما زادتهم إلا عداوة وبغضاً واختلافاً وتنازعاً وحرباً واغتيالا فى تلك العصور التى يسمونها المظلمة . وكان الصينيون فى هدوء وسلام ، ووفاق ووئام ، وما قيل فى الصينيين يقال نحوه فى الهنود . ولا يرد مثل هذا الإشكال على المسلمين لأنهم بمقتضى هدى القرآن يجوزون أن يكون الله تعالى بعث فى الصين والهند أنبياء أرشدوهم إلى ما كانوا فيه من السعادة ثم طال عليهم الأمد فزجوا دياناتهم بالنزعات الوثنية الموروثة حتى حولوها عن وجهها تحويلا كما نعتقد مثل ذلك فى النصارى إذ لا شك أن ديانتهم فى الأصل سماوية توحيدية ثم حولوها إلى عبادة البشر من المسيح وأمه وغيرهما .

(٤) أن الأوروبيين قد استغنوا بالقوانين الوضعية عن شريعة التوراة ، وبالآداب الفلسفية عن آدابها وآداب الإنجيل فطرحوا الزهادة ، ونفضوا عن رؤوسهم غبار الذل وقد نجحوا بهذا وارتقوا عما كانوا عليه أيام كانوا متمسكين

بهذا الكتاب الذى يسمى (المقدس) فكيف تقول إنه لايوجد غيره لهداية البشر وتهذيب أخلاقهم ، وهذا الواقع يدل على خلافه . وهذا الإشكال لا يرد أيضاً على المسلمين لأنهم يعتقدون أن اليهود والنصارى نسوا حظاً مما ذكروا به فى الوحى ، وطرأ على الباقى التحريف والنسخ فلم يعد صالحاً لهداية البشر . ويعتقدون أن الأوربيين أقرب الناس إلى دين الإسلام فى أخلاقهم الحسنة ، كعزة النفس وعلو الهمة والجد فى العمل والصدق والأمانة والإهتداء بسنن الكون والاسترشاد بنواميس الفطرة والأخذ بالدليل وغير ذلك ، وأنهم كما اهتدوا إلى هذا بالبحث والتوسع فى العلم سيهتدون كذلك إلى سائر ما جاء به الإسلام من العقائد والأخلاق والفضائل والأعمال .

(٥) إن المسلمين قد ظهر فيهم كل ما ذكره فى وجه الحاجة إلى الشريعة على أكمل وجه لم يعرف مثله فى الكمال عند اليهود والنصارى فعرفوا ما يجب لله تعالى وما يجب من حقوق العباد . وصلح بالدين حالهم ، واجتمعت كلمتهم ، وتهذبت أخلاقهم ، وسمت مدنيتهم فى كل عصر بقدر تمسكهم به ، والتاريخ شاهد عدل .

(٦) إذا كانت التوراة قد بينت كل ما ذكره من حاجة البشر إلى الشريعة ، فلماذا وجد الإنجيل ؟ وإذا كانت ناقصة فلماذا جعلها الله ناقصة لا تفى بالحاجة ، وكيف يتم له الدليل بناء على هذا القول على إثبات التوراة والإنجيل بالعقل ؟ وهذا الإشكال لا يرد على المسلمين المعتقدين بصحة أصل التوراة والإنجيل ، لأنهم يقولون إن كلا منهما كان نافعاً فى وقته ، ثم عدت عواد إجتماعية ذهبت بالنفع والفائدة ، فساءت حال القوم المنتمين إلى الكتابين فجدد الله الشريعة بالإسلام ، على وجه فيه الإصلاح العام ، فانقشع بنوره كل ظلام ، وحفظ الله كتابه من التحريف والتبديل ، ليرجع إليه الذين يضلون السبيل .

(٧) إذا كانت التوراة مشتملة على ما ذكره كما تقدم فلماذا تركها المسيحيون فعطلوا شرائعها وضيعوا حدودها كما بيناه فى بعض نبذ الرد السابقة .

(٨) إذا كانت كتب العهد العتيق والعهد الجديد إلهية حقيقية ، فلماذا وجد فيها الاختلاف والتناقض والتهاتر ومصادمة العقل الذى لا يفهم الدين ولا يعرف

إلا به ، وقد تكلمنا على مصادمتها للعقل قليلا فى بعض النبذ الماضية ، وسنبين بعد كل ما ادعيناه هنا تبيينا .

(٩) إذا كانت هذه الكتب إلهية وافية بما ذكره المصنف من حاجة الناس للشرائع فلماذا وجد فيها ما يخل بذلك أصوله وفروعه ، كتشبيه الله بخلقه ونسبة الفواحش إلى الأنبياء الذين هم أحق الناس وأولاهم بالإهتداء بالدين الذى تلقوه عنه سبحانه وتعالى وغير ذلك مما ينافى الآداب الصحيحة ، كما ألمعنا من قبل . وسنزيد ذلك بياناً ، ونكتفى الآن بإشارات من لامية الأبوصيرى رحمه الله تعالى قال فى شأن العهد العتيق وأهله :

وكفاهم أن مثلوا معبودهم	سبحانه بعباده تمثيلا
وبأنهم دخلوا له فى قبة	إذ أزمعوا نحو الشام رحيلا
وبأن إسرائيل صارع ربه	فرمى به شكراً لإسرائيلا
وبأنهم سمعوا كلام إلههم	وسبيلهم أن يسمعوا منقولا
وبأنهم ضربوا ليسمع ربهم	فى الحرب بوقات لهم وطبولا
وبأن رب العالمين بدا له	فى خلق آدم ياله تجهيلا
وبأنه من أجل آدم وابنه	ضرب اليدين ندامة وذهولا
وبدا له فى قوم نوح وانثنى	أسفاً يعض بنانه مذهولا [1]
وبأن إبراهيم حاول أكله	خبزاً ورام لرجله تغسيلا [2]
وبأن أموال الطوائف حللت	لهموا رباً وخيانة وغلولا
وبأنهم لم يخرجوا من أرضهم	فكأنما حسبوا الخروج دخولا
لم ينتهوا عن قذف داود ولا	لوط فكيف بقذفهم روبيلا [3]
وعزو إلى يعقوب من أولاده	ذكراً من الفعل القبيح مهولا

---

(١) بداله فى البيت وما قبله أى ظهر له فيه رأى جديد وفى سفر التكوين (٦ : ٦) أن الرب حزن وتأسف لأنه خلق آدم ويلزمه البداء والجهل ، كذلك فى نوح وقومه .

(٢) راجع (١٨ تك) .

(٣) يريد رمى داود بالزنا بامرأة أوروبا (راجع ١١ صموئيل ٢) ولوط ببناته راجع (١٩ تك) وأما روبيل فيسمونه رؤبين راجع قصة قذفه فى (٣٥ تك) .

وإلى المسيح وأمه وكفى بها ... صديقة حملت به وبتولا
وأبيك ما أعطى يهوذ خاتما ... لزنى بمحصنة ولا منديلا [1]
لووا بغير الحق ألسنة بما ... قالوه فى ليئاوفى راحيلا [2]
ودعوا سليمان النبى بكافر ... واستهونوا إفكا عليه مقولا [3]
وجنوا على هرون بالعجل الذى ... نسبوا له تصويره تضليلا [4]

إلى أن قال :

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمس الهداية للورى ... وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج فى شريعته التى ... جمعت فروعاً للهدى وأصولا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفأ القنديلا
درست معالمها ألا فاستخبروا ... عنها رسوماً قد عفت وطلولا

ولا يخفى أن المطاعن التى تنافى ما ذكره المصنف وغيره من الدليل على حاجة البشر إلى الشريعة ، ولا تليق بالوحى السماوى لا ترد على المسلمين الذين يقولون بحقية التوراة والإنجيل لما بيناه فى الجزء الخامس فراجعه (أى ج ٥ م ٤) اه ٦٥٤ م ٤ .

المقالة التاسعة

فى كتب العهدين أيضاً

بينا فى النبذة الثامنة التى نشرت فى الجزء ١٧ ما قاله صاحب كتاب الأبحاث فى إثبات كتب العهدين من طريق العقل ، وفندنا قوله تفنيدا . ونذكر هنا أنه بعد ما ذكر حاول الاحتجاج على استحالة تغير (التوراة والإنجيل) ، فكانت

---

(١) فى (٣٨ تك) أن يهوذ زنى بكنته ظناً أنها بغى ووعدها بجدى وأعطاها خاتماً وعصابته وعصاه رهناً على ذلك وجاءت منه بتوأم (٢) القصة فى (٢٩ و ٣٠ تك) (٣) فى (١١ الملوك الأول) أن النساء أملن سليمان لعبادة الأوثان (برأه الله) .
(٤) راجع (٣٢ خروج) .

حجته الداحضة على ذلك أن الديانتين اليهودية والمسيحية كانتا منتشرتين فى الشرق والغرب ، وكان الكتاب ، لا سيما الإنجيل مترجماً إلى كل لغات الأقوام التى دخل بينهم كالعربية والأرمنية والحبشية والقبطية واللاتينية من اللغتين اليونانية والعبرانية الأصليتين . (قال) فكيف يعقل أن هؤلاء الألوف يجتمعون ويتفقون على تغييره مع اختلافهم فى اللغة والعقيدة ، سيما أن المسيحيين كانوا شيعاً كل واحدة تناظر الأخرى . ولا شك أن قول المسلمين بتغيير الكتاب هو دعوى بدون دليل وإلا فليخبرونا أين الآيات المتغيرة وما هى وما أصلها وما الغاية من تغييرها . فإن عجزوا ، ولا مراء أنهم عاجزون ، قل لهم كيف جاز لكم هذا الادعاء والعالم الحكيم لا يقدم على أمر إلا ولديه ما يثبت مدعاه ، اه .

والجواب عن هذه المغالطة سهل على الناظر فى كتب العهدين التى يسمون مجموعها التوراة والإنجيل ، وفى كتب تواريخ الكنيسة والتاريخ العام . وأما المسلم الذى لم يطلع على ذلك ، فيكفيه أن يقول : إن كل ما خالف القرآن فهو ليس من التوراة ولا من الإنجيل ، لأن القرآن ثابت بالبرهان القطعى ومنقول بالتواتر حفظاً وكتابة ، وتلك الكتب ليست كذلك ، ووحى الله لا يخالف بعضه بعضا إلا ما كان من قبيل الأحكام المنسوخة ، فلا بد من ترجيح القرآن عند التعارض فيما دون ذلك لأنه هو الثابت القطعى كما اعترف بذلك كثيرون من علماء النصرانية فقد جاء فى كتاب (السيوف البتارة ، فى مذهب خريستفورس جباره) لمحمد أفندى حبيب الذى كان تنصر ثم رجع إلى الإسلام بعد ما اختبر غيره : « أن المستر ستوبارت رئيس مدرسة لامارتينيبار فى لكنئو بالهند الإنكليزية صرح فى كتابه المسمى (الإسلام ومؤسسه) صحيفة ٨٧ بما يأتى بالحرف الواحد : « عندنا براهين قوية عديدة للتصديق بأن القرآن الموجود الآن هو عين ألفاظ النبى محمد الأصلية كما لقن وأملى بمراقبته وتعليمه » ، وبهذا قال موير المعدود فى الوقت الحاضر أمهر وأحذق وأكبر عدو للإسلام ، إلى آخر ما استشهد به .

أما التغيير والتبديل والتحريف فى كتب العهدين ، فالمسلمون لا يقولون إن هذه الكتب كلها سماوية منقولة عن الأنبياء نقلا صحيحاً ، وأن اليهود والنصارى غيروها بعد ما انتشروا فى الشرق والغرب ، ونقلها كل قوم دخلوا فى اليهودية أو النصرانية إلى لغتهم . وإنما البحث فى أصلها وكاتبيها فى أول الأمر ومن تلقاها

عنهم قبل ذلك الانتشار العظيم ، وهذا هو الأمر المشكل ، والداء المعضل ، الذى لا يجد أهل الكتاب له دواء ولا علاجا ، من كتب الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام ؟ يقولون إن موسى كتبها وأودعها ما كلمه به الرب فكانت تاريخاً له ولشريعته الإلهية . كيف يصح هذا الجواب ، وهذه الكتب تتكلم عن موسى بضمير الغيبة ، وفى آخر فصل منها ذكر موته ودفنه ؟ يزعم بعضهم أن هذا الفصل كتبه يشوع وأنى يصح هذا وفى الفصل الحكاية عن يشوع وأنه امتلأ روحاً وحكمة فسمع له كل بنى إسرائيل ، فهذه حكاية عنه من غيره . ثم كيف يدلس يشوع ويلحق بكتاب موسى ما ليس منه من غير أن ينسبه إلى نفسه ؟ ولعلهم استدلوا على ذلك بأن كتاب يشوع قد ابتدىء بواو العطف ، فإن أول عبارة فيه هى : « وكان بعد موت موسى عبد الرب » الخ . وهناك دليل على أن الفصل الأخير ليس ليشوع أقوى من الحكاية عنه ومن تبرئته من التدليس وهو أن فى الفصل المذكور بعد حكاية دفن موسى هذه الجملة « ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» فهى تدل على أن الجملة كتبت بعد موسى بزمن طويل ولو كانت ليشوع لم تكن كذلك . وحسبنا أنهم من ذلك فى شك مريب ، فكيف يوثق بهذا الكتاب ويقال إنه متواتر وعن التواتر والأصل مشكوك فيه ؟

فى الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع ما نصه : « ٢٤ فعند ما كمل موسى كتابة هذه التوراة فى كتاب إلى تمامها ٢٥ أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا ٢٦ خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم ٢٧ لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . هوذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحرى بعد موتى ٢٨ اجمعوا إلى كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق فى مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض ٢٩ لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به » الخ .

فهذه هى التوراة التى كتبها موسى على حدة فى كتاب مخصوص وهى كلام الله الذى صدقه القرآن فأين هى ؟ ماذا فعل بها أولئك الذين قال فيهم موسى : إنهم يفسدون بعده ، ويزيغون عن طريق الحق الذى هو التوراة ؟ وماذا أصاب

التوراة من فسادهم وزيغهم وغلظ رقابهم ؟؟ التوراة معناها الشريعة ، وهذه الأسفار الخمسة كتب تاريخية يوجد فيها من أحكام تلك الشريعة مثلما يوجد فى كتب السيرة النبوية عند المسلمين من آيات القرآن وأحكامها ، وليست السيرة هى القرآن والشرع الإسلامى . وكما يوجد فى السيرة النبوية مع التحرى فى روايتها ما يصح وما لا يصح فأجدر بتاريخ موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل أن يوجد فيها ما يصح وما لا يصح ، وهى لم يتحر فيها كاتبها بعض تحرى رواة المسلمين لسيرة نبيهم ، بل قدمنا أن كاتبى تلك التواريخ مجهولون .

اعترف صاحب كتاب « خلاصة الأدلة السنية » على صدق أصول الديانة المسيحية » ، استظهاراً بأن نسخة موسى « رفعت من مكانها مرة ووقعت فى خطر لما غلبت عبادة الأصنام فى ملك منسا وأمون وانقطعت عبادة الله الحقيقية بين الإسرائيليين ، وفى تلك المدة طرحت بين الرثث [1] حيث وجدت فى ملك يوسيا الصالح » ثم قال : « والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية فى الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان من أمرها . والمرجح أنها فقدت مع التابوت لما خرب بختنصر الهيكل . وربما سبب ذلك حديث كان جارياً بين اليهود ، على أن الكتب المقدسة فقدت ، وأن عزرا الكاتب الذى كان نبياً جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة وأصلح غلطا وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية » اه .

فهل ينخدع المطلع على هذه الأقوال وأمثالها بقول صاحب كتاب الأبحاث ، إن الكتاب كان محفوظاً بين الألوف بلغات كثيرة ؟؟ هؤلاء علماء اللاهوت فى مذهبه يعترفون بأن اليهود فقدت منهم عبادة الله بعدما تغلبت عبادة الأصنام ، وأن نسخة التوراة الوحيدة فقدت ويستحيل وجودها ، ويعترفون بأن اليهود كانوا يقرون بأن جميع كتبهم فقدت لأنها كانت فى الهيكل وقد خربه الوثنيون وأخذوا الكتب وأتلفوها . فلم يبق لهم مستند لأصل دينهم إلا زعم يوسيفوس بأن كل سبط من أسباط بنى إسرائيل كان عنده نسخة من التوراة ، ولكن أين هذه النسخ ؟ إن صح قوله — وهو رواية واحد بما يؤيد دينه — فتلك هى النسخ

---

(١) الرثث جمع رثة بالكسر وهى سقط المتاع والخلقان كالخراق البالية وغيرها مما ألقى فى أخس مكان ولا يلتفت إليه .

التى أتلفها بختنصر فيبقى معنا شىء واحد وهو ادعاء أن عزرا الكاتب كتب جميع كتب اليهود كما كانت بل صحح غلطها الأول وكتبها أحسن مما كانت ، وههنا يسأل المسلمون عن الدليل على ذلك ، وعن سبب وقوع الغلط فى النسخ التى احتاجت إلى إصلاح عزرا ، وعن نسخة التوراة التى هى شريعة مستقلة كما كتبها موسى وعن السند المتصل المتواتر إلى عزرا بذلك ؟ ثم إنهم يقولون إذاً جاز أن يصحح عزرا الكاهن خطأ الكتب المقدسة فلم لا يجوز ذلك لمحمد رسول الله وخاتم النبيين ؟ اللهم إن الغرض مرض فى القلب يحول بينه وبين قبول الحق ، فألهم اللهم هؤلاء الناس بأن يطلبوا الحق بصدق وإخلاص ، وافصل بيننا وبينهم بالحق وأنت خير الفاصلين .

هل جاء فى كتبهم المقدسة أن عزرا كتب التوراة وسائر الكتب المقدسة كما كانت ؟ كلا إنه جاء فى الفصل السابع من سفر عزرا أنه فى ملك ارتحشستا ملك فارس صعد عزرا (وذكر نسبه إلى هرون وهو يدلى إليه بخمسة عشر أباً) هذا من بابل وهو كاتب ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الرب إله إسرائيل . وأنه جاء أورشليم فى الشهر الخامس من السنة السابعة لارتحشستا الملك . قال : « (١٠) لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها ، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء (١١) وهذه صورة الرسالة التى أعطاها الملك ارتحشستا إلى عزرا الكاهن كاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل (١٢) من ارتحشستا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب إله شريعة السماء » إلى آخره .

هذا هو دليلهم من كتابهم المقدس ، على أن عزرا كتب التوراة والكتب المقدسة بالإلهام بعد فقدها ، وهو كما ترى لا يدل على ذلك بل قصارى ما يعطيه أنه كان من كتبة الدين أو الشرع ، كما تقول إن فلاناً الصحابى كاتب الوحى ، فلو فرضنا أن القرآن فقد من المسلمين وأنه لم يحفظ فى الصدور ثم ادعينا أن معاوية كتبه بالإلهام لأنه وصف فى بعض كتب التاريخ الدينية بأنه كاتب الوحى ، فهل يقبل منا أهل الكتاب هذا الدليل .

ثم أن الملك ارتحشستا الذى شهد لعزرا هذه الشهادة التى لا نعرف سببها أمره مبهم فى التاريخ لا ينطبق على روايات العهد العتيق المضطربة فى سفر نحميا ، وسفر

عزرا ، فلا يعرف أهو ارتحشستا الأول الذى هو ازدشير الملقب عند الفرس بزرادشت أم هو ارتحشستا الثانى ؟ فإن ذكر عزرا له بعد داريوس يدل على أنه الأول والتاريخ ينقض هذا ، ولا نطيل فى بيان الاضطراب فليرجع إليه من شاء فى كتب التاريخ ، وفى دائرة المعارف ملخص منه ، وهذا الاضطراب يبطل الثقة بالرواية ، والمسلمون لا يقبلون خبراً عن نبيهم رووه بالإسناد المتصل القريب إذا كان فيه مثل هذا الاضطراب العجيب . اه ص ٧٤٣ م ٤٠

المقالة العاشرة

عصمة الانبياء والخلاص

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يجِد لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) .

ذكرنا فى نبذة سابقة أننا طلاب مودة والتئام ، وأن المناقشات فى الأديان والمذاهب قليلة الجدوى ، وربما أضرت ولم تنفع لأن أكثر الناس مقلدون ، وما أضيع البرهان عند المقلد ! ! وقلنا إن هؤلاء المبشرين الإنجيليين اضطرونا إلى الرد على تمويههم بما يرسلون إلينا من الكتب والجرائد التى تطعن فى عقائد المسلمين ، ويلحون علينا بأن نرد عليها ، وقد انضم إلى إلحاحهم طلب كثيرين من المسلمين يقولون : ليس فى القطر مجلة إسلامية أنشئت لخدمة الدين مع العلم إلا المنار ، فيجب عليها رد الشبهات التى توجه إلى الإسلام . فبهذا وذاك صار من الواجب علينا بحكم ديننا الرد على هذه الكتب والجرائد ونأثم شرعاً بتركه .

« كلما داويت جرحاً سال جرح » ، فقد كنا نرد على آخر كتاب لهم جمع خلاصة شبهاتهم ، وإذا نحن بجريدة « بشائر السلام » ترد إلينا من غير طلب ولا سبق مبادلة . ثم فى هذه الأيام أرسلت إلينا جريدة « راية صهيون » الإنجيلية مكتوباً عليها : أرجو الإطلاع على مقالة خطية الأنبياء والرد عليها .

تكاثرت الظباء على خراش   فلا يدرى خراش ما يصيد

ولكن القليل من آيات الحق يكفى لإزهاق الكثير من الباطل لذلك نقول :

ابتداء هذه المقالة « إن المسلمين يقولون إن الله أرسل أنبياء كثيرين إلى العالم وأعظمهم ستة وهم : آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى (أى المسيح) ومحمد . وكثيرون يقولون بأن كل هؤلاء الأنبياء كانوا بلا خطية ، ولذلك كانوا قادرين على إيهاب الخلاص لتلاميذهم ، ولكن لو كانوا خطاة فما كانوا يتيسر لهم ذلك ، إذ لا يمكن للخطاة أن يخلصوا الآخرين من الخطية » هذا ما قاله بحروفه ثم تعقبه بدعوى أن من عدا المسيح من هؤلاء الأنبياء كانوا عصاة مذنبين مستدلا بما جاء فى قصصهم فى كتب العهد العتيق .

فأما معصية آدم فمعروفة ، وأما نوح فذكر أنه شرب الخمر واعترف الكاتب بأن التوراة لم تذكر له خطيئة غير هذه ، ولكنه جزم بأنه لابد أن يكون خاطئا . وأما إبراهيم « فقد ورد عنه أنه كذب مرتين من باب الخوف من الناس » . وأما موسى فذكر الكاتب من خطيئته أنه « حينما أمره الله أن يذهب إلى فرعون قد أظهر خوفا عظيما وجبنا زائداً جعل الله أن يغضب عليه . وحينما كان بنو إسرائيل فى البرية بعد خروجهم من أرض مصر قد فرط موسى مرة بشفتيه حتى أن الله لم يسمح له نظراً لهذا الذنب أن يدخل إلى أرض كنعان ، بل جعله أن يموت فى القفر ، واستدل على خطيئاتهم من القرآن العزيز بما ورد من الآيات فى طلبهم المغفرة إلا المسيح فإنه لم يرد عنه ذلك . وختم المقالة بعد كلام طويل فى الثناء على السيد المسيح عليه الصلاة والسلام بدعوة المسلمين إلى الإيمان به (وهم المؤمنون به حقا) والاتكال عليه فى خلاصهم (وهم لايتكلون إلا على الله وحده) ويعنى بالإيمان به أن يكون موافقا لمذهب بروتستنت فإنه كتب نبذة فى الصفحة الأولى من هذا العدد بأن سائر الطوائف « مسيحيون بالظاهر ، وأما فى الحقيقة فليسوا كذلك » وأن الله سيلقيهم فى النار التى لا تطفأ . أما الرد على المقالة فمن وجوه:

(الأول) أن أفضل الأنبياء عند المسلمين : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ويسموهم أولى العزم وليس آدم منهم لقوله تعالى :

« ولم نجد له عزما » ومن العلماء من منع التفاضل بين الرسل وقال : إن ذلك لا يعرف إلا بالوحى .

(الثانى) أن المسلمين لا يعتقدون أن الأنبياء هم الذين ينجون الناس بسبب عصمتهم من عذاب الله ويدخلونهم بجاههم فى رحمته وإنما يعتمدون على الله تعالى وحده فى ذلك ، ويعتقدون أن سبب النجاة الإيمان الصحيح والعمل الصالح وأن الأنبياء ما أرسلوا إلا مبشرين ومنذرين فهم يعلمون الناس الإيمان الصحيح المقبول عند الله تعالى والعمل الصالح الذى يرضيه ، فمن آمن وعمل صالحا ترجى له النجاة بفضل الله تعالى الذى وفقه وهداه ، ومن كفر بعد بلوغ الدعوة بشرطها فلا يزيد الظالمين كفرهم إلا خسارا .

(الثالث) أن هؤلاء المعترضين لم يعرفوا معنى عصمة الأنبياء عند المسلمين فتوهموا أنهم يقولون بذلك لإثبات أن الأنبياء ينجون الناس لأنهم معصومون ، فنجيبهم بأن المسلمين قام عندهم الدليل العقلى على ذلك وهو أن الله تعالى جعل الأنبياء هداة ومرشدين ليقتدى بهم ، فلو ابتلاهم بالمعاصى التى هى مخالفة الشريعة التى يأتون بها لما كانوا أهلا للهداية ، لأن الله أودع فى فطرة البشر أن يقتدوا بالأفعال أكثر من الأقوال ، وقد أخبرونا أن الله تعالى أمر بالإقتداء بهم ، فلو كانوا يرتكبون مخالفة أمره لكان فى أمره بالاقتداء بهم تناقض وأمر بالشر وهو محال . وليس معنى عصمتهم أنهم مخالفون للبشر فى جميع أطوارهم فلايخافون مما يخيف فى الدنيا ، ولا يتألمون مما يؤلم ، ولا يتوقون الشر (سنوضح المقام فى الأمالى الدينية بعد) .

(الرابع) أنه لم ينقل عن سيدنا نوح فى العهد العتيق إلا شرب الخمر ، وفى هذه الأناجيل أن المسيح شرب الخمر أيضا . فإن قلنا بأن من لم ينقل عنه أنه عصى يصلح أن يكون مخلصا للناس فنوح يصلح لذلك كالمسيح ، بل إن من صالحى هذه الأمة المحمدية كثيرين لم تحفظ عليهم معصية .

(الخامس) ما نقله عن سيدنا إبراهيم مصرح بأنه كان للضرورة وإرادة التخلص من شر وظلم أكبر من كذبة فى الظاهر لها تأويل فى نفس القائل كقول إبراهيم عن زوجته : هذه أختى : يعنى فى الدين . ومن القواعد المعقولة والمشروعة

أنه إذا تعارض ضرران يجب ارتكاب أخفهما ، فإذا حاول ظالم أن يغتصب امرأتك ليسترقها أو يفجر بها وقدرت أن تنجيها منه بكلمة كاذبة ، وجب عليك ذلك وتكون الكذبة معصية فى الصورة طاعة واجبة فى الحقيقة .

(السادس) أن ما ذكره عن سيدنا موسى من الخوف ليس فيه معصية لله ومخالفة لشريعته ، وإنما هو شأن من الشئون البشرية الجائزة وهو خوف هيبة وإجلال للوظيفة العظيمة التى كلف بها .

(السابع) إذا لم يصح الدليل العقلى على عصمة الأنبياء فعدم نقل المعصية عن المسيح لا ينافى وقوعها منه لأنه لا يلزم من عدم العلم بالشىء عدم وجوده فى نفسه .

(الثامن) أن طلب الأنبياء المغفرة من الله تعالى لا يدل على أنهم كانوا بعد النبوة عصاة مخالفين لدين الله تعالى ، ولكنهم لمعرفتهم العالية بالله تعالى ، وما يجب له من الشكر والتعظيم ، يعدون ترك الأفضل إذا وقع منهم فى بعض الأوقات ذنباً وتقصيراً . ألم تر أن للمقربين من الملوك والسلاطين ذنوباً غير مخالفة لقوانين يطلبون من الملوك العفو عنها . ولله المثل الأعلى . وسيأتى إيضاح ذلك فى الأمالى الدينية .

(التاسع) إذا فرضنا أن دليل المسلمين على عصمة الأنبياء غير صحيح فلا حجة للمسيحيين عليهم فى شىء ، وإنما ذلك شبهة على الدين المطلق اهـ ص ٨١٦ م ٤ .

المقالة الحادية عشرة

الخوف والرجاء عند المسلمين

والطعن بهما على الصحابة والتابعين

نشرت مجلة بشائر السلام الإنجيلية فى الجزء الرابع منها نبذة فى الطعن بالمسلمين عامة ، وبأكابر الصحابة الكرام خاصة ، وذلك أن عابتهم وعابت دينهم بالرجاء لفضل الله والخوف من الله ، وهذا مبلغ القوم من العلم بالله وبدين الله — أثبتت « أن كثيرين من المسلمين يموتون على بساط الرجاء بدخول الجنة والتنعم بنعيمها

بناء على ما لهم من المواعيد الكريمة فى قرآنهم ، إلى أن قالت : « وما علة ذلك سوى جهلهم بحقيقة أنفسهم وكمالات البارى تعالى » ، ثم قالت مستدركة : إن أولى العلم والذكاء من المسلمين غالوا فى التمسك والتعبد والصلاة والابهال إلى الله تعالى وجعلت علة هذه العبادة أنهم لم يجدوا ما يريح نفوسهم من الشعور بثقل حمل خطاياهم . واستشهدت على المعلول دون العلة بكلام فى الخوف من الله عن أبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وسفيان الثورى وعدت سفيان من الصحابة وما هو من الصحابة ، ولكن العلم ليس شرطاً للقول عند هؤلاء المشاغبين ، وفى العبارة أيضاً تحريف ، وليست الأمانة من شروط النقل عند هؤلاء المبشرين .

وما لنا وللبحث فى الروايات التى نقلتها ، وبيان التحريف وضعف الضعيف ، نضرب عن ذلك صفحاً وعن العبارات الذى أساء بها الكاتب الأدب مع هؤلاء الأئمة الذين يفتخر بهم النوع الإنسانى ، ولوصدق المسلمون هذه الكتب التى تسمى التوراة وسمح لهم دينهم بتفضيل أحد على الأنبياء لكان لهم من التاريخ ما يفضلون به هؤلاء الأئمة على أنبياء التوراة ، إذ لم ينقل عن واحد منهم مثلما نقل القوم عن أنبيائهم من القسوة والظلم والسكر والزنا وسفك الدماء برأهم الله مما قالوا بغض الطرف عن هذا ونبين للقراء أن الغرض من ذم الخوف والرجاء اللذين هما الركنان لكل دين صحيح هو تقرير قاعدة إباحة المعاصى والشرور التى هى العنوان لبشارتهم ، والجاذبة إلى ديانتهم ، وهى أن النجاة فى الآخرة من العذاب والحياة الأبدية فى الملكوت إنما يحصلان باعتقاد أن الإله لم يجد وسيلة لنجاة البشر من ذنب أبيهم آدم إلا بحلوله فى جسم إنسان ، وتسليط طائفة كانت أفضل الشعوب عليه وصلبها إياه وصيرورته ملعوناً بحكم الناموس والشريعة !! فمن أطفأ سراج عقله ، وأفسد فطرة نفسه ، وسلم بهذه القاعدة فهوالناجى الذى يرث الملكوت الأعلى ، وإن قتل وزنا وسكر وأكل أموال الناس بالباطل وظلم العباد وكان آفة العمران . ولذلك صرح الكاتب الذى لا أقدر أن أصفه إلا بكونه مبشراً داعياً إلى هذه العقيدة بأن سبب خوف أبى بكر وعلى وسفيان من الله هو جهلهم بقاعدة الفداء ، يعنى أنهم لو عرفوا وصدقوا بها لكانوا عاشوا آمنين من مكر الله وعذابه يسرحون ويمرحون فى أهوائهم وحظوظهم . والحاصل أن المسلم الذى يغلب عليه الرجاء بفضل الله ووعده للمحسنين بالنعيم جاهل ضال ، والذى يخاف الله هيبة

وتعظيما ، أو لاتهام نفسه بالتقصير فى الأعمال الصالحة النافعة للناس ، وفى المعارف والكمالات المزكية للنفس ، فهو جاهل ضال ؛ وأن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله من غير تفرقة بينهم ، وتهذيب الأخلاق وإصلاح الأعمال كل ذلك لا ينفع المسلم الصادق ولا يغنى عنه شيئاً . فما حيلة المسلم المسكين إذا ابتلاه الله تعالى بسلامة الفطرة ونور العقل ، فلم يقبل تلك القاعدة التى تقضى منها الذين تربوا عليها تقليداً لما عقلوا وميزوا ، على أن كتب القوم لا تخلو من نصوص تدل على أن رسلهم ومقدسيهم كانوا يخافون من الله تعالى ويرجون رحمته ، لأنهم لم يكونو إباحيين ، بل كانوا قوماً صالحين .

إن القرآن الحكيم علمنا أن دين الله تعالى واحد فى جوهره ، وأن جميع الأنبياء وصالحى المؤمنين بهم كانوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات الحوادث وإفراده بالعبادة والخوف الزاجر عن المعاصى والشرور والرجاء الباعث على الخير والصلاح . وإننا نرى جميع عقلاء المسيحيين يوافقوننا على هذه القاعدة ويودون أن يهتدى إليها دعاة كل دين ورؤساؤه ليكون الدين كما شرع الله سعادة للبشر لا وبالاً وشقاء عليهم ومثاراً للخلاف والشحناء والبغضاء بينهم .

وقد ذكر الإمام الغزالى أنواعاً للخوف كخوف الموت قبل التوبة ، وخوف نقض التوبة ونكث العهد ، وخوف ضعف القوة عن الوفاء بالحقوق ، وخوف زوال رقة القلب وتبدل القساوة بها ، وخوف الميل عن الاستقامة ، وخوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة ، وخوف الغرور بالحسنات ، وخوف البطر بكثرة النعم ، وخوف الاشتغال عن الله بغير الله ، وخوف الاستدراج بتواتر النعم ، وخوف انكشاف غوائل الطاعات بأن يبدو للمرء ما لم يكن يحتسب ، وخوف تبعات الناس عنده فى نحو غيبة أو خيانة أو غش أو إضمار سوء وخوف ما عساه يطرأ عليه فى مستقبله ، وخوف نزول البلاء ، وخوف الاغترار بزخرف الدنيا ، وخوف اطلاع الله على السريرة فى حال الغفلة ، وخوف سوء الخاتمة . ويمكن استنباط أنواع أخرى . وعلى الخوف خوف المهابة والإجلال لله عزوجل وكل ذلك من الذنوب عند هؤلاء المبشرين اهـ ص ٩٨ م ٥ .

المقالة الثانية عشرة

إيمان المسلمين وأعمالهم

جاء فى الجزء ٨ من مجلة بشائر السلام نبذة تحت هذا العنوان ملخصها : إنه يجوز على مذهب أهل السنة « أن يؤمن أحد بالإسلام إيماناً حقيقياً ويبقى أعماله شريرة » واعترض الكاتب على هذا اعتراضين أحدهما « أن الإيمان الذى لا ينشىء فى صاحبه توبة وعملا صالحاً بل يتركه وسيئاته تفوق حسناته ، ومضاره تزيد عن منافعه . . . فهو إيمان باطل عديم النفع يحط من كرامة الخالق . ويزيد فى شقاوة المخلوق » ، ثانيهما « عجز الإيمان المحمدى عن الخلاص التام » وقد أورد الكاتب بعد الإعتراض الأول كلمات من كتب العهدين تدل على أنه يطلب من الإنسان أن يكون كاملا ، ولكنها لا تدل على أن المؤمن يكون معصوماً من الذنوب . وأورد بعد الثانى كلمات تدل على أن الإيمان بالمسيح كاف للخلاص ، ولكن لم يشترط مع الإيمان عملا صالحاً .

لو كان هؤلاء المعترضون يعتقدون بما يقولون لكانت هدايتهم قريبة ، وإقناعهم أقرب ، ولكنهم يلوكون الكلام ويلوون ألسنتهم بالكتاب ليفتنوا به عامة المسلمين الجهلاء ، ولا يبالون إن كان الكلام حجة عليهم . عهدهم الجديد ناطق بأن البر والعمل بالناموس الإلهى لا يغنيان عن الإنسان شيئاً وإنما يغنى عنه الإيمان بالمسيح فقط ، وبذلك ينجو ويرث الملكوت ، وإن كان شر الأشرار وأفجر الفجار ، والقرآن لا يكاد يذكر الإيمان إلا مقروناً بذكر العمل الصالح . وورد فى السنة الصحيحة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وهذه السنة مؤيدة بخمس وسبعين آية من القرآن . وهذا ما عدا الآيات التى ذكر فيها العمل الصالح بدون ذكر الإيمان .

قال تعالى : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) ، وقال عز وجل : (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب . من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر

أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) ، وقال جل ذكره (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياتهم زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً) ، وقال تقدست أسماؤه : (والعصر إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فهذه السورة القصيرة أجمع للفضائل وأبلغ فى الهداية من جميع الكتب التى فى العالم سماوية كانت أو غير سماوية ، وهى كافية لأن تكون ديناً مستقلا لقوم يتدبرون .

إن الشبكة التى يصيد بها الجاهلين هذا الكاتب وأمثاله إلى المسيحية هى أن خلاص الإنسان محصور فى أن يؤمن — أى يقول وإن لم يعقل — بأن الإله مركب من ثلاثة أصول كل واحد منها عين الآخرين ، فالثلاثة واحد وأن أحد الثلاثة وهو الابن حل فى جسم إنسان بواسطة آخر وهو روح القدس فصار هذا الإنسان الإله وابن الإله وإنساناً وابن الإنسان وصار هو الله ، ثم إنه سلط أعداءه على نفسه فصلبوه واحتمل الألم واللعنة الإلهية لأجل خلاص الناس من ذنب أبيهم آدم وذنوبهم لأنه لم يجد غير هذه الطريقة لخلاص عباده .

لا يطلب هذا الكاتب وأمثاله ممن يدعوهم إلى دينه إلا هذا القول الذى لا يعقل ولا يحمل النفس على عمل صالح بل يجرئها على جميع المعاصى ، والجاهل يحب أن تباح له المعاصى ويكون ناجياً بكلمة يقولها . فإذا كان دعاة النصرانية قد بدا لهم أن يشترطوا مع هذه الكلمة التى يسمونها إيماناً ترك المعاصى والأعمال الصالحة ، فأية مزية لدينهم غير تلك الكلمة التى لا تعقل ولا تفهم ؟ ألا يعلم أنه إذا دعا مسلماً إلى دينه وطالبه بترك المعاصى وبعمل الصالحات فإنه لا يستطيع أن يصيده مهما كان جاهلا لأنه يقول إن هذا يكلفنى بمثل ما يكلفنى به دينى ، ويزيد على ثقلا آخر وهو الإيمان بما لا أعقله ولا أفهمه ، وهو أن الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحد ، وأن الله عجز عن إنجاء الناس بدون أن يهين ذاته العلية بالحلول فى أحدهم وبالتألم وبلعن نفسه .

المسلمون يعتقدون أن الإيمان يهذب ويصلح الأخلاق والأعمال ، وأنه يجوز مع ذلك أن تغلب على المؤمن شهوته أو غضبه فيعمل شراً ، لا سيما إذا لم يترب

على أعمال الإيمان من النشأة الأولى ، ولكنه يرجع ويتوب عن قريب . قال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) وقال سبحانه (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم) ومن التوبة أن من يعمل صالحاً يكفر سيئته (إن الحسنات يذهبن السيئات) فإذا قصر فهو تحت مشيئة الله .

فتبين مما ذكرنا بالاختصار أن الإيمان عند المسلمين يثمر الأعمال الصالحة ، وأن العمل لا قيمة له فى إيمان النصارى ، أما قول مجلة « بشائر السلام » فى نتيجة الاعتراض الأول : « وبناء على ما تقدم كل إيمان لا يكون الكمال غايته ، والتقوى ثمرته فهو إما إيمان كاذب بالإله الحق كإيمان النصارى بالاسم واليهود بالاسم ، أو إيمان صادق لكنه بإله باطل خيالى قائم على الأوهام » فهو مسلم ، ولقد أنصفت فيما كتبت عن إيمان النصارى ولم يكن من شأنها ذلك فإن إيمانهم ليس إلا أسماء سموها وأقوالا لا تعدو الفم لأن العقل ينكرها ولا يستطيع أن يتصورها ، وأما قولها بعد ذلك « وأظنك لم تنس ذكر القوم الذين هم على الإسلام بالإجماع وهم مع ذلك من أهل العصيان والفجور بحيث يحكم عليهم بالسجن فى جهنم مدة لا تنقص عن تسعمائة سنة ولا تزيد عن سبعة آلاف » الخ ، فهذا التحديد فيه لم يصح فى كتاب ولا سنة فهو لا يعتد به عند المسلمين وإن ذكر فى بعض الكتب فكم فى الكتب من أحاديث موضوعة وأقوال مكذوبة ، ولا حجة علينا إلا فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة . وأما كلام المؤلفين فى أمور الآخرة فلا يعتد به ما لم يكن منقولا ، على أنه لا يجب الإيمان فيما يتعلق بعالم الغيب إلا بالقرآن والأحاديث المتواترة وهى قليلة جداً . وهذا الذى قلناه هو الأصل المعول عليه عند المسلمين .

وأما قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) فليس خطاباً للمسلمين كما زعم الكاتب لأن الآيات التى قبلها كلها فى الكفار ، فقيل إن الخطاب لهم خاصة ، وقيل إنه عام ، والمراد بورود المؤمنين حينئذ المرور عليها والجثو عندها قبل دخول الجنة وبذلك يعرفون مقدار نعمة الله تعالى عليهم بدخول الجنة .

(كلمتان) أختم هذا الرد بكلمتين : أولاهما للمسلمين الذين يرسلون إلينا هذه الجرائد لنرد عليها : لا يحزنكم أيها المسلمون هذا الاعتداء الذى لم تعتادوه ولا تعدوه

من سيئات حرية المطبوعات فهو من حسناتها ، لأن هذا الاعتداء بالطعن على دينكم هو الذى يوقظكم من نومكم ، ويبعث فيكم شعور البحث والاستدلال ويحيي فيكم روح الغيرة الملية والمباراة القومية ، حتى تعرفوا حقائق دينكم بالبراهين والدلائل والبحث لا يزيد الحق إلا ظهورا .

والكلمة الثانية للنصارى المعترضين ، الذين يسمون أنفسهم مبشرين ، وهى : أننا نعتقد أنكم تطعنون على دين الإسلام الذى لولاه ما ثبت دين فى هذا العصر المنير مأجورين لا معتقدين بما تقولون وما تكتبون ، ولذلك يترك أحدكم التبشير إذا عزل من الجمعية ومنع عنه الراتب الذى كان له ، ولو كنتم تعتقدون بالدين لعلمتم أن دين الله واحد ، وهو تنزيه البارى وتوحيده والإخلاص فى عبادته ، وترك الشرور وعمل البر ونفع العباد ، وكنتم ترون أن الإسلام قد خدم العالم الإنسانى بهذا الإصلاح المنقح ، وأنه هو دين الأنبياء أجمعين ظهر فى أكمل ارتقاء ، وأخرج أهل الكتاب من الخلاف والمشكلات ولكن الهوى يصدكم عن هذا ، فاعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون . اهـ ص ٤٣٦ م ٥

المقالة الثالثة عشرة

سخافة بشائر السلام فى الجاهلية والإسلام

نشرت مجلة بشائر السلام الإنجيلية فى جزئها التاسع نبذة فى الجاهلية والإسلام زعمت فيها أن الإسلام فى عقائده وأعماله دون الجاهلية ، وقد توسعت فى الكلام على الركن الأعظم فى الإيمان وهو توحيد الله تعالى ، فزعمت أن الإسلام زاد الجاهلية وثنية على وثنيتها !!! واحتجت على ذلك بستة أمور :

(١) كون الإيمان بمحمد حتماً بعد الإيمان بالله تعالى ، فجعلت هذا شركا بالله. وما هذا إلا الإيمان بالوحى والرسل ، فإن من ينكر نبوة موسى أو عيسى كافر عند المسلمين كمن ينكر نبوة محمد عليهم الصلاة والسلام ، فيظهر أن الإيمان بالوحى شرك ووثنية عند الكاتب الانجيلى ، وتعبيره بمقارنة الاسمين فى الشهادتين لا يزيد الشبهة قوة ، فإن صيغة الشهادة المروية فى الصحيحين هى : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أشهد أن محمداً عبده ورسوله » فهل يكون العبد رباً وإلهاً ؟؟

وأما المقارنة فى الذكر قولا وكتابة فهى لا تمتنع إلا إذا حرم ذكر الله تعالى ومنع بالمرة ؟ ألا يقول الكاتب : رحم الله فلانا : ونحو هذا ؟ وقد كبرت على الكاتب كلمة توجد فى بعض كتب المسلمين ، وهى أن كلمتى الشهادة مكتوبتان على العرش قبل خلق السموات والأرض . القول بهذه الكتابة ليس من عقائد الاسلام ، فمن عاش ومات ولم يسمع بها أو سمع ولم يصدق بأنها وردت فى الحديث بالمرة فلا يعد هذا ولا ذاك نقضاً لايمانه ولا نقصاً منه ، وإذا قلنا إن هذه الكتابة ثبتت وصحت فأى وثنية فيها ، والإله إله والعبد عبد ؟ نعم إن ذلك يدل على التشريف وهل يقول الكاتب إن جميع عباد الله سواء فى معرفته وعبادته ونفع خلقه ، وأن تشريف بعضهم وتفضيله على الآخر شرك بالله ، وأن التوحيد الخالص هو أن يعتقد الانجيلى بأن موسى كفرعون وإبراهيم كنمرود بلا فرق ؟ هذا هو فهم دعاة النصرانية فى الدين ، وهذا ما ينقمون من المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

(٣) زعم الكاتب أن المسلمين أنزلوا حديث النبى منزلة القرآن وجعلوهما سواء فى أخذ الأحكام مع اعتقادهم بأن القرآن كلام الله والحديث كلام محمد ، وزعم أن الشيعة تركوا الحديث فأسخطوا أهل السنة . وكل من الزعمين باطل فأهل السنة لا يقولون بأن القرآن والأحاديث سواء والشيعة لم يرفضوا الأحاديث ، القرآن أصل الدين والسنة مبينة له قال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم) ، وللقرآن خصائص ومزايا ليست للسنة ، كوجوب الإيمان بجميع ما فيه ، وكالتعقيد بتلاوته ، وأما الأحاديث فلا يضر فى الإيمان إنكار أى حديث منها (ومن ثبت عنده شىء بالتواتر لا يستطيع إنكاره وإن لم يكن حديثاً فلا يجىء الحديث المتواتر هنا) وهى على أقسام فما كان منها متعلقاً بأمور الدنيا فلا يجب الأخذ به ، ويجوز أن يكون خطأ كما فى حديث تأبير النخل الصحيح ، وفيه أنه ﷺ قال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وما كان متعلقاً بأمر الدين فإما أن يكون عن اجتهاد ، وإما أن يكون عن وحى ، أما اجتهاد الأنبياء فقد جوز علماء أهل السنة أن يقع فيه الخطأ ولكن لا يقرون عليه ، بل يأتيهم الوحى ببيان الحق فيه كما فى واقعة أسرى بدر ، وأما ما يقولونه عن وحى من الله فيجب الأخذ به ، ويفرق المسلمون بين القرآن وبين الوحى الذى يعبر عنه النبى بعبارة من عنده ، ويسمى عند المسلمين خبراً وحديثاً بما تقدم ، وبأنه إذا وقع تعارض بينهما ولم يمكن الجمع يعمل بالقرآن

دون الحديث ، فالحديث الصحيح فى المرتبة الثانية لا يمكن أن يساوى القرآن ، ولذلك سأل النبي ﷺ معاذاً عندما أرسله إلى اليمن بماذا يحكم ؟ فقال بكتاب الله ، وأنه إذا لم يجد يحكم بالسنة، فأجازه على ذلك ، وهذا هو المروى عن أبى بكر وعمر وغيرهم من أئمة الدين ، أى أنهم كانوا ينظرون فى القرآن أولا فإن رأوا فيه حكم ما يطلبون قضوا به ، وإلا بحثوا فى السنة وعملوا بها . فلينظر المسلمون كيف يخترع المسيحيون لهم أصولا للدين ، ويبنون عليها رميهم بالشرك المبين ، فهذا هو تعصبهم ، وهذا تساهلنا ، والحمد لله رب العالمين .

(٣) قال : « الثالث ذكر اسم محمد مع اسم الله فى مواضع جمة من القرآن نظير شريك له فى الأمر والنهى والحل والربط ووجوب الطاعة له والمحبة » الخ وقال الكاتب إنه لا يذكر الشواهد إلا من سورة التوبة وحدها ولكنه ذكر ثلاث آيات اثنتان منها من التوبة والثالثة من الأحزاب ، وقد حرف الآيتين مع وضعهما بين علامات تدل على أنه نقلهما بنصهما فكتب (إن الله برىء مما يشركون ورسوله) والله تعالى يقول (إن الله برىء من المشركين ورسوله) وكتب (وما كان لمؤمن أو مؤمنة) الخ والله تعالى يقول : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله رسوله أمراً) الآية . أما الجواب عن الشبهة فهو واضح وهو أن أحكام الله تعالى إنما تؤخذ عن رسوله ، فكل ما يقضى به الرسول من أمر الدين فهو مبلغ له عن الله تعالى ويصح اسناده إليه كما يصح اسناد الحوادث الطبيعية إلى أسبابها لأن الله تعالى جعلها مرتبطة بها ولا يسمى شيء من هذا شركا . وكأنى بالكاتب يقول إن دينه يحكم بشرك من يقول : « ينبغى للإنسان أن يستحى من الله ومن الناس » ونحو هذا لأنه قرن اسم الناس باسم الله فى حكم واحد .

فلينظر المسلمون إلى أمانة دعاة النصرانية فى النقل وليقابلوا بين ما ذكر من التحريف فى الآيات والخطأ فى العزو إلى السورة وبين ما وقع لنا مع أحد كبار العلماء ، وهو أنه نبهنا إلى وجوب التنبيه على غلطة وقعت فى المنار نقلا عن الانجيل وهى : «لم تجربونى » وقد حذف نون الوقاية من الفعل بالطبع فطبعت (تجربونى) . وليتأمل المنصفون فى نقلنا عن القوم ونقلهم عنا للتمييز بين الصادقين والكاذبين ، . والتزييل بين المتساهلين والمتعصبين ، والحمد لله رب العالمين .

قال (٤) : « الرابع اتخاذ المسلمين محمداً سيداً لهم » ثم استنبط من هذا أن المسلمين يعتقدون بأنهم عبيد لمحمد ، وقال :إن هذا هو الشرك الذى عناه . وجوابه أن المسلمين لم يوجبوا أن يقول أحد عند ذكر النبي كلمة «سيدنا » ولم يرد الأمر بوصفه عليه الصلاة والسلام بذلك فى الكتاب ولا فى السنة . وقد ذهب بعض العلماء إلى أن إضافة لفظ (سيدنا) على صيغة الصلاة الملحقة بالتشهد مكروهة ، وقال بعضهم أنها مستحبة لأن هذا اللقب من ألفاظ التكريم التى اعتادها الناس مع الكبراء ومع الأقران . وأما استدلال الكاتب على هذا السيادة التى تستتبع الشرك عنده بآية « إن الله وملائكته يصلون على النبي » فهو غريب لأن الصلاة من الله الرحمة ومن غير الله الدعاء كما صرح بذلك العلماء . فلو كان كل من نطلب له الرحمة إلها لنا وكل من نخاطبه بلقب السيادة إلها لنا لكان لنا وللكاتب آلهة لا تحصى ! ! ! نعم إن المسلمين يعتقدون أن محمداً أفضل الأنبياء والمرسلين ويعبرون عن ذلك بالسيادة والأنبياء أفضل بنى آدم فهو أفضل بنى آدم وسيدهم ، ولكنهم ليسوا عبيداً له . أما وجه تفضيله فهو ظاهر بأثره وقد كتبنا فيه وسنكتب أيضاً إن شاء الله . فليتأمل المتأملون فى تمحل هؤلاء الدعاة المسيحيين ، واستنباطهم الذى يضحك المحزونين ، والحمد لله رب العالمين .

(٥) قال : « الخامس مغالاة المسلمين فى أقدمية محمد إلى أن قالوا إنه نور كان قبل البشر » الخ ، ونقول إن هذه المغالاة ليست من الدين فى شىء فلا توجد فى القرآن ولا فى كتب السنة الصحيحة ولا فى كتب العقائد وإنما توجد فى كتب القصص والموالد التى لا اعتبار لها والدين ينهى عن القول بغير علم ، على أن العامة الذين يروج عندهم هذا الغلو لا يختلفون فى حدوث نبيهم وغيره من الأنبياء ، فلا يصح أن يسمى القائل بذلك مشركا بوجه ما ، ولينظر الناظرون مبلغ علم هؤلاء الناس بالأديان التى يحكون ببطلانها ويدعون أهلها إلى تركها وليدلونا على مسلم يتكلم مثلهم بغير علم ، ويعتدى عليهم فى الدعوى ثم فى الحكم ، وحسبنا أننا من المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

(٦) قال : « السادس والأخير اتخاذ المسلمين محمداً شفيعاً » ثم قال : « واتخاذ المخلوق شفيعاً عند الله هو عين الشرك الذى كان عليه العرب فى الجاهلية لا أكثر ولا أقل » ، ثم ذكر أن اتخاذ الجاهلية شفعاء كثيرين أخف شركا من حصر المسلمين

الشفاعة فى شفيع واحد . على أن المسلمين لم يحصروا . والجواب : أن الشفاعة عند المسلمين هى الدعاء . ولذلك يقولون فى الصلاة على الميت « وقد أتيناك راغبين إليك شفعاء له اللهم إن كان محسناً فزد فى احسانه ، الخ فكل مسلم شفيع بل كل مؤمن بالله يدعو الله تعالى لنفسه ولغيره ، والدعاء للغير يسمى شفاعة . كأن الكاتب الانجيلى يقول إن دينه يحكم بشرك كل من يذكر ميتاً كوالده أو غيره ويقول : رحمه الله تعالى : فهكذا يفعل (دين التساهل) يفتات أهله على المخالفين ، وإذا أجابوهم بالحق يدعونهم متعصبين ، ولكن هذا لا يخرجنا عن تساهل المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وإن تعجب فعجب قول من اتخذوا نبيهم إلها : إن الذين يقولون إن نبيهم عبد الله ولكنه أفضل عباده لأنه نفع خلقه أفضل منفعة وهداهم بإذنه أكمل هداية هم المشركون بالله لأنهم يعرفون فضل نبيهم ويسألون له رحمة الله تعالى ويطيعونه فيما يبلغه عن الله تعالى !!

قال الكاتب بعد إيراد ما تقدم : « ويرد على ذلك اتخاذنا نحن النصارى السيد المسيح شفيعاً وحيداً بين الله والناس على ما جاء فى الإنجيل . فأجيب إذا كنا معتقدين أن المسيح مخلوقا (كذا) واتخذناه شفيعاً وحيدا أو معه غيره نكون بلا شك مشركين ، ولكن إذ كان المسيح بالحقيقة كلمة الله الأزلى « هو الخالق وغيره المخلوق الذى كان به كل شىء وبغيره لم يكن شىء مما كان ، فلسنا مشركين بل نعبد إلها واحدا تبارك اسمه » !!!

يعنى أن الشرك هو اعتقاد الناس أن نبيهم عبد الله وأن شفاعته دعاء لله ، وأن التوحيد الخالص هو اعتقاد الناس أن نبيهم الذى ولد منذ ١٩٠٢ هو الله القديم الأزلى الخالق لكل شىء مما كان قبله وما يكون بعده ، وأنه شفيع بمعنى أنه واسطة بين الناس وبين نفسه ، يصلبها ويلعنها لا نجاتهم !! بخ بخ ما أحسن هذا التوحيد !! هذه هى شبهات المسيحيين المصلحين . فلله الشكر والمنة أن جعلنا مسلمين . وسلام المرسلين . والحمد لله رب العالمين اهـ (ص ٥١٧ م ٥)

المقالة الرابعة عشرة

فى رد مطاعن مجلة الجامعة الإسلامية

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ . . .) .

قد علم قراء المنار أننا لم نفتح هذا الباب للطعن فى دين النصارى أو غيره ابتداء ، وإنما فتحناه لرد شبهاتهم التى ربما تشكك الجاهل بالإسلام فى الدين مطلقا فتفسد أخلاقه ، ويكون مصيبة على نفسه وعلى الناس . ولا غرض لطعن الطاعنين فى الإسلام إلا هذا التشكيك الذى يحل الرابطة الإسلامية ويضعف المسلمين لأنه يخرجهم عن كونهم أمة فيكونون أفراداً مقطعين ، لا جنسية لهم ولا دين ، ولو أنهم كانوا يطمعون فى تنصيرهم لكان لهم عندنا بعض العذر . ولكن التجربة أفادت التاريخ أن الملايين من النصارى صاروا مسلمين ولا يوجد بإزاء كل مليون من هؤلاء واحد من المسلمين تنصر إلا ما كان من أفراد ليس لهم من الإسلام إلا وراثة الاسم عن آبائهم الأولين .

قيل للسيد جمال الدين الأفغانى الحكيم الشهير (رحمه الله تعالى) ما سبب الدعوة إلى مذهب الدهريين فى الهند وعدم الاقتصار على الدعوة إلى النصرانية ؟ فقال إن المسلم يستحيل أن يكون نصرانيا لأن الإسلام نصرانية وزيادة ، فهو يأمر بالاعتقاد بنبوة عيسى وحقيقة دعوته ويرفض الخرافات والبدع التى زادتها الجمعيات النصرانية فى دينه . فلما جرب الذين يبتغون حل الرابطة الإسلامية الدعوة إلى النصرانية فلم تنجح عمدوا إلى تشكيكهم فى أصل الدين المطلق بالدعوة الى الدهرية

وكذلك لما رأى مثل صاحب الجامعة أن تشكيك المبشرين بالنصرانية لم ينجح فى المسلمين من الطريق الدينى انبرى لتشكيكهم من الطريق العلمى وبذل جهده لإقناعهم (١) بأن دينهم كغيره عدو للعقل وللعلم و (٢) أن أئمتهم فى العقائد

(المتكلمين) ينكرون الأسباب : و (٣) أن جمع السلطة الدينية والسلطة السياسية المدنية فى خليفة الإسلام ضار بالمسلمين وموجب لتأخرهم . ومن رأى صاحب الجامعة أن المسلمين إذا أرادوا الترقى والنجاح فلا بد لهم من سماع نصيحته وهى (١) أن يضعوا دينهم فى جانب من العقل والعلم لأنهما قاضيان بهدمه كقضائهما بهدم النصرانية فإذا حاولوا الجمع بين الدين والعلم كما ينصح لهم بعض أئمتهم بما ينشر فى فى المنار وغيره فإنما يحاولون محالا ، بل إنما يهدمون دينهم فيخرجون بلا علم ولا دين ، و (٢) أن يعتقدوا أن سنة الله تعالى فى الأسباب والمسببات مطردة فى الواقع خلافا لما يحكم به الدين وعلماء الكلام ، فإذا صدقوا الواقع فعليهم أن يكذبوا أئمتهم والعكس بالعكس . (٣) أن يجعلوا خليفتهم حاكما مدنياً يخترع الشرائع والأحكام ويتركوا ما شرعه الله لما شرعه السلطان ، و يجعلوا الدين خاصاً بالعبادة لله تعالى . أى أنه يجب على المسلمين فى رأى صاحب الجامعة أن يتركوا نصف دينهم وهو أحكام المعاملات الدنيوية ويجعلوا النصف الثانى لمن أراد أن يترك العقل والعلم والأسباب لأجل العبادة .

هذا ملخص نصح صاحب مجلة الجامعة للمسلمين ولأجل أن يجعله مقبولا أورد لهم كلمات من بعض أئمتهم حرفها عن معناها ليخدع البسطاء بها .

وإننا نشرح هذه المسائل ونبين الحق فيها ليكون حجة على هؤلاء المعتدين الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

الأسباب أو سنن الله تعالى فى الخلق

(وإثبات الإمام الغزالى لها)

ذكر صاحب الجامعة فى كتاب لفقه أننا أوردنا قوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا) لإثبات أن النواميس الطبيعية لا تتغير ولا تتبدل ثم قال : « مع أنه لو قام حجة الإسلام الإمام الغزالى من قبره وسمع هذا القول لكسر قلم صاحب تلك المجلة وضحك من بساطته وعدم اطلاعه على الشئون التى يبحث فيها لأنه استشهد بتلك الآية للغرض الذى ذكره مع أنها لم ترد فى القرآن لهذا الأمر بوجه الاطلاق .

يقول هذا صاحب الجامعة تمهيداً لخلابة المسلمين بأن ما يتحكم هو فيه من الحكم بتفسير كتاب الله برأيه الأفين مقتبس من الإمام الغزالى الذى حرف قوله عن موضعه ولم يفهم مراده منه .

إذا كان الغزالى يضحك من (بساطة) من أخذ معظم علمه فى الدين من كتابه إحياء العلوم اعتقاداً وعملا ودرسه من أول نشأته المرة بعد المرة كما درس كل ما اطلع عليه من كتبه بإمعان وإخلاص — فهل يضحك أو يبكى من (تركيب) جاحد معاند يلتمس من كلامه كلمة يحرفها عن موضعها ليغش المسلمين بشىء يخالف دينهم ، محتجاً بكلام إمام من أئمتهم ولا موضع للاحتجاج ؟ نترك مثل هذا ونسرد مذهب الغزالى فى الأسباب وسنن الله تعالى ونبين الحق فى المسألة التى اشتبه فهمهما على كثير من الناس حتى صار التشكيك فيها متيسراً لمثل صاحب الجامعة مع عوام المسلمين الذين لا يزال فيهم من يقرأ ما يكتبه ذهابا مع سماحة الإسلام .

مذهب الغزالى : قال حجة الإسلام فى الفصل الثالث من كتاب التوكل مانصه :

« الأسباب التى يجلب بها المنافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه . (الدرجه الأولى) المقطوع به وذلك مثل الأسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف ، كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول : أنا متوكل وشرط التوكل ترك السعى ومد اليد إليه سعى وحركة ، وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسفله : فهذا جنون محض وليس من التوكل فى شىء . فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز أو يخلق فى الخبز حركة إليك أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى . وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت فى أن يخلق الله نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل هذا جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه » اهـ بحروفه .

وبعد أن قرر أن هذه الدرجة لا يأتى فيها التوكل بترك العمل تكلم عن الدرجة الثانية وهى ما كان السبب فيها مظنونا وبين أن التوكل لا يأتى فيها أيضا قال

ما نصه : « فإذاً التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى ، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل :

هذا التفصيل فى جلب المنافع وقد أورد مثله فى منعها وفى دفع المضرات التى أسبابها قطيعة أو ظنيه وبين أن التوكل إنما يكون فى ترك الأشياء الوهمية كالرقية والطيرة والكى التى ورد بها الحديث . ومما صرح فيه بذكر السنة الإلهية هنا قوله « وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقض التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى ، إما قطعا وإما ظنا ، ثم أورد الشواهد من الكتاب والسنة وهى مشهورة .

وقال فى الكلام على التداوى وهو من منع المضار هذه الكلمة الجليلة « ليس من التوكل الخروج عن سنة الله أصلا » وقال أيضا فى تداوى النبي ﷺ « وإنما لم يترك الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصاً لأمته فيما تمس إليه حاجاتهم » .

وأظهر من هذا قوله بعد شرح طويل للأسباب « فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب . فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلى واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بعد التجربة التحق فى حقه بالأول . والثانى أن الدواء يسهل . والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر فى الباطن وأسباب من المزاج وربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة ، وقد يتفق فى العوارض ما يوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر . واختلال الأسباب أبداً ينحصر فى هذين الشيئين وإلا فالمسبب يتلوا السبب لا محالة ، مهما تمت شروط السبب ا هـ بحروفه .

فأى نص فى التلازم بين الأسباب والمسببات أقوى من هذه الجملة الأخيرة ؟ فهذا هو الإمام الغزالى الذى يوهم المسلمين صاحب الجامعة بأنه ينكر الأسباب

وينكر أن معنى سنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول الأسباب وارتباطها بالمسببات ، فهل بعد هذا يوثق بقول صاحب الجامعة أو بحسن قصده ؟ وهل يجوز لغير العالم الراسخ أن ينظر فى قول هذا المشكك الذى يريد أن يفسد على عوام المسلمين عقائدهم؟

التوفيق بين هذا وبين ما قاله فى تهافت الفلاسفة

مسألة الأسباب التى شرحها الإمام الغزالى فى كتاب التوحيد والتوكل هى ما يعتقده المسلمون ، وإنما كتبها للسلمين لأنه يبين فى هذا الكتاب مقام التوكل الذى هو أعلى مقامات الإيمان ، وله كلام آخر فى هذه المسألة مع الفلاسفة لا مع المسلمين ، وكلامه هنا يجب أن يكون بلسان يخالف هذا اللسان ، ولكن لا يناقضه ذلك أنه هنا يشرح الواقع الذى يدل عليه الوجود وينطق بموافقته الشرع وهناك يتكلم على العلل والتأثيرات الحقيقية فى الإيجاد والإعدام ، وما قاله فى الموضعين هو الحق الذى لا محيد عنه كما نبينه .

ولا بد قبل الخوض فى القسم الثانى من كلمة تمهيدية فى الموضوع ، وهى أن المغرورين بالظواهر من الفلاسفة المتقدمين كانوا ينزلون الأسباب العادية الظاهرة منزلة العلل العقلية القاطعة ، وينسبون إليها التأثير ، ويزعمون أنها مطردة اطراداً ضروريا يستحيل انفكاكه ، ولو نهضت لهم الحجة البالغة على ذلك لما خالفهم المسلمون ، لأن القاعدة المتفق عليها عند المتكلمين هى أن قدرة الله تعالى وإرادته لا تتعلقان بالمستحيل ، وإنما تتعلقان بالممكن فقط . ولكن لا حجة لهم على ذلك وإنما هى شبهات كشف الحجاب عنها الغزالى وغيره .وتلك الأسباب التى مر القول فى اطرادها ممكنة ، فهى مطردة بفعل الله تعالى .

ولو سلم الناس بقول أولئك الفلاسفة لوقفت حركة العلم عند تلك الظواهر التى كانوا يرون تغييرها محالا عقليا ، وإنما المحال العقلى شىء واحد ، وهو اجتماع النقيضين ، أو الضدين المساويين للنقيضين أو ارتفاعهما . ولو أن هذه الغرائب التى كشفها العلم فى عصرنا ذكرت لأولئك الفلاسفة القاصرين لجزموا باستحالتها وأوردوا على ذلك من الشبهات النظرية مثلما أوردوه على القول ببعث الأجساد ، وأمثلة بعث الأجساد ظاهرة اليوم لعلماء الكيمياء ظهوراً تاماً .

قال الإمام الغزالى فى كتاب تهافت الفلاسفة مانصه « هذا ما أردنا أن نذكره فى العلم الملقب عندهم بالإلهى . أما الملقب بالطبيعيات فهى علوم كثيرة نذكر أنواعها لتعرف أن الشرع ليس يقتضى المنازعة فيها ولا إنكارها إلا فى مواضع ، وأنبه القارىء إلى عطفه الإنكار على المنازعة لتغايرهما ، فالإنكار هو قول ببطلان الشيء مرة واحدة ، والمنازعة هى المباحثة فى دليله ليظهر الصواب ، مأخوذة من منازعة الثوب بين اثنين . ثم قال الإمام ـ بعد سرد أنواع العلوم الطبيعية المعروفة إلى ذلك العهد ـ وإنما نخالفهم من جملة هذه العلوم فى أربع مسائل (الأولى) حكمهم بأن هذا الإقتران المشاهد فى الوجود بين الأسباب والمسببات اقتران تلازم بالضرورة فليس فى المقدور ولا فى الإمكان إيجاد السبب دون المسبب ولا وجود المسبب دون السبب ، وأثر هذا الخلاف يظهر فى جميع الطبيعيات ، إلى أن قال ما نصه « إنما يلزم النزاع فى الأولى من حيث إنه ينتنى عليها إثبات المعجزات الخارقة للعادة من قلب العصا ثعبانا وإحياء الموتى وشق القمر ، ومن جعل مجارى العادات لازمة لزوما ضروريا أحال جميع ذلك ، وأولوا ما فى القرآن من أحياء الموتى وقالوا أراد به إزالة موت الجهل بحياة العلم ، وأولوا تلقف العصا لسحر السحرة الإلهية بإبطال الحجة الظاهرة على يد موسى شبهات المنكرين . وأما شق القمر فربما أنكروا وجوده ، وزعموا أنه لم يتواتر » اهـ بنصه .

ولينظر طلاب الحقيقة إلى تحريف صاحب الجامعة النصرانية قول الإمام كيف كان . الإمام قال : « وإنما يلزم النزاع فى الأولى من حيث إنه ينتفى عليها إثبات المعجزات ، ومعناه أن محل النزاع فى المسئلة الأولى هو انتفاء إثبات المعجزات بجعلها من المحالات العقلية التى لا يمكن وجودها ولا تتعلق قدرة الله بها . وصاحب الجامعة يقول عن لسان هذا الإمام ما نصه : « ثم قال وإنما يجب علينا إنكار هذا القول لأنه ينتفى به إثبات المعجزات » : فجعل (انكار) محل (النزاع) وزاد عليه جعله واجبا . وقد بينا الفرق بين الإنكار والنزاع آنفا . فإذا كان نقل صاحب الجامعة عن رنان وعن غيره على هذا النحو من الفهم والأمانة فإننا نهنىء من يقرأ ما يكتبه بأن علمه عين الجهالة ، وهدايته نفس الضلالة .

ثم قال الإمام الغزالى فى بيان الحق فى المسئلة من طريق العلم المؤيد لما يعتقده المسلمون ما نصه : « الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ليس

ضروريا عندنا ، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا اثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمن لنفى الآخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر،ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر،مثل الرى والشرب والشبع والأكل . والاحتراق ولقاء النار . والنور وطلوع الشمس . والموت وجز الرقبة . والشفاء وشرب الدواء . واسهال البطن واستعمال المسهل . وهلم جرا ، إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف . وإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوى لا لكونه ضروريا فى نفسه غير قابل للفرق بل فى المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق الموت دون جز الرقبةوادامة الحياة مع جز الرقبة وهلم جرا،إلى جميع المقترنات،وأنكر الفلاسفة إمكانه وادعوا استحالته ، ثم ضرب لذلك مثالا واضحا لا حاجة لذكره .

وما ذكره الإمام الغزالى هنا هو ما عليه فلاسفة هذا العصر ، فإنهم لايقولون بأن شيئا من هذا المقترنات فى العادة المعروفة بالأسباب والمسببات هو ضرورى واجب عقلا وانفكاكه محال لا يتصوره العقل ، بل كل هذه الأشياء عندهم ممكنة وانفكاك التلازم وقع كثيرا ويسمون مالا يعرفون له منه علة ، فلتات الطبيعة ، وبعض الانفكاك كان بما اكتشفه العلم من أسرار الكون ويتوقعون بهذه الاكتشافات مالم يقع كإحياء الموتى ، ولو كان فى نظرهم محالا لما توقعوه . ولكن صاحب الجامعة لا يميز بين الضرورى والممكن ، فيخلط المسائل بعضها ببعض . وقد صرح الغزالى فيما تقدم آنفا بأن المتلازمين فى العقل تلازماً يثبت به أحدهما بثبوت الآخر وينتفى بانتفائه هما اللذان يستحيل انفكاك تلازمهما لأن قدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيل .

الوفاق بين قولى الغزالى ومذهب باكون

تقدم أن الغزالى قال فى كتاب التوكل : إن سنة الله فى نظام الكون هى أن الأسباب مرتبطة فيه بالمسببات ارتباطاً كليا لا يختل إلا إذا لم يستوف الشروط التى يتحقق بها السبب حتى قال إن المسبب يتلو السبب عند عدم المانع ، لا محالة ، وفسر مثل قوله تعالى : (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنه الله تحويلا) بهذا النظام فى الارتباط بين الأسباب والمسببات وهو التفسير المتعين . وقال فى

كتاب تهافت الفلاسفة : إن هذا الارتباط بين الأسباب والمسببات العادية على إطراده ليس بضرورى فى نظر العقل ،وعدمه ليس محالا ، وإنما هو ثابت فى الواقع ونفس الأمر بحكمة خالق الكون ومدبره . وإذا كان الله قد أحكم بحكمته الروابط بين حوادث الكون ، فينبغى للناس أن يبحثوا عنها ، ويهتدوا بها فى مصالحهم ومنافعهم ، ولا يتوقف هذا الاهتداء على كون كل ما يظهر فى العادة سبباً لشىء أن يكون انفكاكه عنه محالا عقليا .

ويعلم الناظر فى فلسفة القدماء أنهم كانوا يعتمدون على الأدلة النظرية فى الحكم باستحالة الشىء أو إمكانه أو وجوبه عقلا . فالغزالى وغيره من أئمة علم الكلام بينوا أن المستحيل العقلى هو ما كان بمعنى اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما أو اجتماع الضدين بمعنى النقيضين . وقالوا : إن المستحيل والواجب الضرورى فى نظر العقل لا تتعلق بهما قدرة الله تعالى ، وإنما تتعلق قدرة الله تعالى بالممكن فقط ، فكانت فائدة قول المتكلمين فى أمرين عظيمين هما أساس لترقى البشر : (أحدهما) أن ما ثبت أنه ضرورى (واجب) أو مستحيل لا يطمع فيه الطامع لا من جهة الكسب ، ولا من جهة الالتجاء إلى الله تعالى لأنه لا يتغير . (ثانيهما) : أن للممكنات سنناً منتظمة ينبغى للإنسان أن يعرفها وينتفع بها ، ولكن لا ينبغى أن يوقف حركة استعداده عندما يظهر له بادى الرأى أنه لا يتغير ، بل عليه أن يبحث لعله يقف على سنة إلهية أخرى تكون السنة التى ظهر له إطرادها مشروطة بها فيجمع بين الانتفاع بالسنتين معاً . مثال ذلك : أن السنة الآلهية الظاهرة فى النار أنها تحرق ما يقبل الاحتراق ، فلا ينبغى للإنسان أن يجزم بأنه لا يمكن أن ينتفى هذا الاحتراق لأنه ضرورى ، بل عليه أن يبحث لأن الإحراق ممكن وربما يكون حصوله مشروطاً بانتفاء وجود مادة من المواد لو عرفت يمتنع الإحراق بها . وقد اكتشف الآن ما يمنع الاحتراق فى الجملة وانتفع به فى وقاية المكاتب العمومية .

فبهذا التقرير أتى حجة الإسلام على تلك الفلسفة النظرية من القواعد (وإن أساء ابن رشد فى فهم بعض قوله وكابره فى بعضه) وأظهر حكم الدين الإسلامى فى إطلاق العقل الإنسانى من تلك القيود النظرية ليسبح فى ملك الله مهتدياً بسنن الله

فيه . وقد جرى (باكون) على هذا الأثر فقرر أن الأدلة النظرية لا يعتمد عليها فى إثبات المسائل العلمية ما لم تؤيد بالتجربة والاختبار . قال باكون هذه الكلمة التى يعدونها أساس النهضة العلمية الجديدة فى أوربا وقد كانت معروفة عند المسلمين من قبله (كما تقدم فى مقالات الإسلام والنصرانية) وما كانت عنده أكثر جلاء ووضوحاً لأنه كان يعتقد بخلافها كالتنجيم والكيمياء القديمة وحجر الفلاسفة ، وهى أمور وهمية لا ترتقى إلى أن تكون نظرية مظنونة . ولكن أوربا كانت مستعدة بارتقاء العلم فيها إلى الأخذ بما قال من وجوب الاعتماد على التجربة والاختبارفعملوا بذلك وارتقى العلم به ، وعد باكون أمام هذه الطريقة التى قررها المسلمون وعملوا بها من قبله.

والنتيجة أن صاحب الجامعة أخطأ فى زعمه أن الإمام الغزالى أنكرالأسباب ، وفى زعمه أن مذهبه فى السنن الإلهية غير ما قلناه فى « المنار » وندعو إليه دائماً ، وفى زعمه أن بينه وبين قاعدة باكون سوراً عالياً ، وفى زعمه أيضاً أن التلازم بين الأسباب والمسببات أو النواميس إذا لم يكن ضرورياً (أى واجباً عقلياً يستحيل عدمه) تصير النواميس فوضى ، فإن خالق الكون وواضع نواميسه إذا كان حكيما لا يفعل شيئاً إلا بنظام ، كما دل على ذلك كتابه العزيز ، ودل عليه الوجود فكيف يكون الامر فوضى ؟ ومن قال إن النظام فى الكون مشروط بكون الله تعالى غير قادر وغير حكيم ؟ ما قال بهذا إلا صاحب الجامعة النصرانية ليثبت أن مذهب المتكلمين المسلمين باطل فى نفسه ومؤد إلى إنكار حكمة الله تعالى وقدرته . ولم نر من المنكرين على الدين أشد تهافتاً فى طعنه بالإسلام وأئمته الاعلام مثل هذا الكاتب الجليل الذى حاول الشهرة والنجاح من غير طريقهما كما فعل ذلك المعتوه الذى تخلى فى مذبح تلك الكنيسة العظيمة ليشتهر اسمه . فبئست الشهرة بمكابرة الحق وتحريف كلام الأئمة لأجل دريهمات تجىء من عدو للإسلام ، يحب أن يتشفى من أهله ، ولو بزور الكلام ، وهو أعلى من أن تعرج إليه الأوهام .

المقالة الخامسة عشرة

رد على إنكار الجامعة كون الإسلام دين العقل

كنا ولا نزال نصرح بأن دين الإسلام هو دين العقل ، وحجتنا الكتاب والسنة وكلام الأئمة ، ولكننا ابتلينا بمن يشكك المسلمين فى دينهم ، وفى الدعاية بإيهامهم أن ما نقول ليس من الدين ، وأنه ضاربه لأن الإسلام يجب أن يكون كسائر الأديان التقليدية عدواً للعقل ، وأن بناءه على العقل مؤذن بهدمه كغيره ، وأنه لو كان معقولا لكان علماً ولم يكن ديناً — إلى غير ذلك من التشكيك ، وإنما نأخذ ديننا عن الأدلة العقلية والنقلية من كتاب ربنا لا عن المخالفين المشككين :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمۤ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

هذا كتاب الله يقيم الأدلة والبراهين مطالباً بها أهل العقل باليقين فى الإيمان واليقين لا يكون إلا بالبرهان ، ومعرفة الشىء ببرهانه هو أعلى العلم وأقواه . ولذلك قال تعالى بعد آيات ذكر فيها أهل الكتاب : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) . وقال بعد آية (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) ، والبصائر جمع بصيرة وهى الحجة توصل إلى اليقين . ثم قال فى الجاحدين تقليداً (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم به بذلك من علم إن هم إلا يظنون) ، فنفى عنهم العلم ، وبين أن الظن لا ينفع فى الدين ، لأن المطلوب فيه علم اليقين ، كما قال فى سورة النجم : (وما لهم بذلك من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) .

تلك آيات قصيرة تدل على أن الإسلام دين العقل ، وأنه علم ، وأنه يطلب فيه اليقين ، ولا يكتفى بالظن فى الإيمان بأصوله ، كوحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته ، وبعثة الأنبياء ، ورسالة خاتمهم عليه وعليهم الصلاة والسلام . وقد جاء فى القرآن كلمة « يعقلون » بالياء والتاء نحو خمسين مرة ، وفيه ذكر العقل والعقلاء فى الخطاب ، وإقامة الآيات على الإيمان بغير هذا الحرف كالنهى واللب ، فلفظ الألباب جاء فى بضع عشرة آية . لهذا كان العلم بالكون طريق الإيمان والإسلام . قال عز وجل : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) فديننا ولله الحمد علم وكل علم دين ، لأنه يزيدنا إيماناً ومعرفة بالله سبحانه ، وقد ورد فى الحديث « إن هـــذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » ، وأما قول المشككين إن العلم محصور فى المحسوسات ، فكل ما لا تحس به فلا يقال فى عرف الفلاسفة إنك عالم به ، فهو من المغالطة أو الجهل ، فإنه لا علم يعتصم باليقين كعلم الرياضيات وبراهينها معقولة غير محسوسة .

تعارض الدليل العقلى مع الدليل السمعى

ذكرنا فى المنار غير مرة أن الذى عليه المسلمون من أهل السنة وغيرهم من الفرق المعتد بإسلامها أن الدليل العقلى القطعى إذا جاء فى ظاهر الشرع ما يخالفه فالعمل بالدليل العقلى متعين ، ولنا فى النقل التأويل أو التفويض ، وهذه المسألة مذكورة فى كتب العقائد التى تدرس فى الأزهر وغيره من المدارس الإسلامية فى كل الأقطار ، كقول الجوهرة :

وكل نص أوهم التشبيها   أوله أو فوض ورم تنزيها

قال الإمام الرازى فى تفسير قوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ، عند ذكر التأويل : « إنه قد ثبت أنه متى وقع التعارض بين القاطع العقلى والظاهر السمعى ، فإما أن يصدقهما ، وهو محال ، لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يكذب القاطع العقلى ويرجح الظاهر السمعى ، وذلك يوجب تطرق الطعن فى الدلائل

العقلية ، ومتى كان كذلك بطل التوحيد والنبوة والقرآن . وترجيح الدليل السمعى يوجب القدح فى الدليل العقلى والدليل السمعى معاً ، فلم يبق إلا أن يقطع بصحة الدلائل العقلية ويحمل الظاهر السمعى على التأويل » اه ، ثم إنه أقام الدليل بهذا الوجه على المعتزلة فى مسألة التكليف لأنهم يتفقون مع أهل السنة فيه .

هذه المسألة مشهورة عند علماء المسلمين لا نحتاج إلى تأييدها بنقول ، ولكن فشت بيننا فى هذا العصر مطبوعات المشككين فى الدين ، فإذا نقل المسلم عبارة من أصول دينه يقولون إن هذا من عنده ولا يبعد أن يوجد من الجاهلين من يغتر بأقوالهم . وقد تقدم فى مقالات « الإسلام والنصرانية » أن الأصل الثانى للإسلام تقديم العقل على النقل عند التعارض ، وهذا دليله من القرآن ومن كلام بعض الأئمة ، ولو أردنا سرد النقول من المواقف والمقاصد وسائر كتب الكلام والتفسير ، ومن كتب المتأخرين كحواشى الباجورى والرسالة الحميدية لأطلنا الكلام فى معنى واحد .

الشكوك فى المسألة

فإن قيل : إن الإمام الغزالى بعد أن أظهر تهافت الفلاسفة فى أدلتهم النظرية فى علم الله تعالى قال « فإذن ليس ينفك فريق منهم عن خزى فى مذهبه ، وهكذا يفعل الله بمن ضل عن سبيله ، وظن أن الأمور الإلهية يستولى على كنهها بنظره وتخيله » فهل يدل هذا القول على أن الدين غير معقول أم لا ؟

فالجواب : أنه ليس من مقتضى الدين ولا من مقتضى الفلسفة الوقوف على كنه الخالق وحقيقته ، وكنه صفات البارى وحقيقتها . وإذا عجز الحكماء والعلماء عن معرفة كنه الأجسام المشاهدة فكيف يطمع الطامعون فى معرفة كنه خالق الأجسام بأدلة نظرية وتخيلات شعرية ؟ هذا شىء لم يكلفنا به الدين فيكون قول الغزالى بإنكاره على الفلاسفة دليلا على أن الإسلام لا يكلف الناس بغير المعقول كما يزعم المشكك .

ومثل هذا قوله فى هذا البحث (بحث العلم الإلهى) مخاطباً الفلاسفة بعد إظهار

عجزهم وتهافتهم . « المقصود تعجيزكم عن دعواكم معرفة حقائق الأمور بالبراهين القطعية وتشككم فى دعاويكم ، وإذا ظهر عجزكم ففى الناس من يذهب إلى أن حقائق الأمور الإلهية لا تنال بنظر العقل ، بل ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، ولذلك قال صاحب هذا الشرع صلوات الله عليه : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » اه .

فهذه الجملة من الامام الغزالى كالجملة السابقة خاصة ببيان عجز البشر عن حقيقة البارىء وحقائق صفاته ، وقد مرت القرون والأجيال ، وستمر قرون وأجيال أخرى إلى أن ينقضى عمر البشر ، ولا يصلون إلى معرفة حقيقة الله وحقيقة علمه وسائر صفاته . وهكذا قال صاحب (مقالات الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) قال (ص ٥٤٤ من المنار) : « لا بد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى معلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » ، وعند ذلك يكون الله قد أتم دينه ولو كره الكافرون وتبعهم الجامدون القانطون » ، فكلام الامام الغزالى ، وكلام هذا الامام واحد لا فرق بينهما . ولو كان الإسلام كلفنا بأن نعرف كنه ذات الله تعالى وكنه صفاته لكان مكلفاً لنا بما لا يعقل ولا يستطاع . ولكن الله يقول : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

هذا وإن الامام الغزالى لم يقصد بكتاب تهافت الفلاسفة الذى نقلنا منه تينك الجملتين بيان القواعد الإسلامية ، وإنما قصد بيان فساد نظريات الفلاسفة فى الأمور الإلهية ، وقد يدفع الفاسد بالفاسد ، ولذلك قال قبل الجملة الثانية بأسطر (ص٤٥) « نحن لم نخض فى هذا الكتاب خوض الممهدين ، بل خوض الهادمين المعترضين ولذلك سمينا الكتاب (تهافت الفلاسفة) لا (تمهيد الحق) » اه ، فلا يصح أن يؤخذ من هذا الكتاب مذهبه فى العقائد ولا فى غيرها كما نبهنا على ذلك فى مقالة الأسباب والمسببات (المقالة الرابعة عشرة) . وإنما يؤخذ مذهبه من كتبه فى العقائد والأصول ، وهو فيها موافق لسائر أئمة السنة فى أن العقل أصل الاسلام ، وأن براهينه القطعية لا ترد ، فإن جاء فى الشرع ما يخالفها فى الظاهر فالحكم فيه ما تقدم .

فإن قيل : قد علمنا أن أئمة المسلمين فى العقائد والأصول لم يختلفوا فى أن دين الإسلام هو دين العقل ، فهل تعلم أن الفلاسفة الإسلاميين خرجوا عن هذا الأصل وفصلوا بين العقل والدين ؟ .

فالجواب : كلا إن الفلاسفة أحرص على التوفيق بين العقل والشرع من غيرهم . وقد ألف فيلسوف الإسلام فى الغرب أبو الوليد بن رشد رحمه الله تعالى كتابا فى هذه المسألة أثبت فيها ما أثبته أهل السنة من قبله ذلك الكتاب هو (فصل المقال ، فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) فنى هذا الكتاب أثبت أن الشرع الإسلامى أوجب النظر بالعقل وجعله أساساً للعقائد . ثم قال (فى ص ٨) ما نصه :

وإذا كانت هذه الشرائع حقا وداعية إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق ، فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له . وإذا كان هذا هكذا فإن أدى النظر البرهانى إلى نحو ما من المعرفة بموجود ما فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه فى الشرع أو عرف به . فإن كان مما سكت عنه فلا تعارض هناك وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعى . وإن كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقاً لما أدى إليه البرهان فيه أو مخالفاً فإن كان موافقاً فلا قول هناك . وإن كان مخالفاً طلب هناك تأويله ، ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل فى ذلك بعادة لسان العرب فى التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التى عهدت فى تعريف أصناف الكلام المجازى . وإذا كان الفقيه يفعل هذا فى كثير من الأحكام الشرعية فكم بالحرى أن يفعل ذلك صاحب العلم بالبرهان ، فإن الفقيه إنما عنده قياس ظنى ، والعارف عنده قياس يقينى .

« ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى . وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ولا يرتاب فيها مؤمن . وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول بأن نقول : إنه ما من منطوق به فى الشرع مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبر الشرع

وتصفحت سائر أجزائه وجد فى ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل أو يقارب أن يشهد . ولهذا المعنى أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل » ا ه المراد منه بحروفه

تقول : الله أكبر ، لمع الحق وبهر ، وظهر أن علماء المسلمين متكلميهم وفلاسفتهم ومفسريهم وفقهائهم لم يختلفوا فى أن الإسلام دين العقل ، على العقل بنى شرعه والعقل هو المخاطب به (لا القلب وحده) وظهر أن ما قاله الأستاذ الإمام فى مقالات (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) فى تعارض الأدلة العقلية والنقلية ، هو المجمع عليه فى الملة الحنيفية ، وهذا مايدعو إليه المنارجهاراً ، وكبر على أعداء الاسلام فمكروا مكراً كباراً ، ولن يجدوا لهم من دون الله أنصاراً .

فإن قيل : إن لابن رشد كلاما آخر فى « تهافت التهافت » يشبه أن يكون مخالفاً لقوله هنا كقوله « الفلسفة تفحص عن كل ماجاء فى الشرع فإن أدركته استوى الإدراكان وكان ذلك أتم فى المعرفة ، وإن لم تدركه أعلنت بقصور العقل الانسانى وأن يدركه الشرع فقط » وكقوله : « أما الكلام فى المعجزات فليس فيه للقدماء من الفلاسفة قول لأن هذه كانت عندهم من الأشياء التى لا يجب أن يتعرض للفحص عنها ، وتجعل مسائل ، فإنها مبادىء الشرائع والفاحص عنها أو المشكك فيها يحتاج إلى عقوبة عندهم مثل من يفحص عن سائر مبادىء الشرائع العامة مثل هل الله تعالى موجود وهل السعادة موجودة وهل الفضائل موجودة وأنه لا يشك فى وجودها ؟ وأن كيفية وجودها هو أمر إلهى معجز عن إدراك العقول الإنسانية ؟ والعلة فى ذلك أن هذه هى مبادىء الأعمال التى يكون بها الإنسان فاضلا لا سبيل إلى حصول العلم إلا بعد حصول الفضيلة ، فوجب أن لا يتعرض للفحص عن المبادىء التى توجب الفضيلة قبل حصول الفضيلة ، وإذا كانت الصنائع العملية لا تتم إلا بأوضاع ومصادرات يسلمها المتعلم أولا فأحرى أن يكون ذلك فى الأمور العلمية » ا ه بحروفه .

فالجواب : أن هذا الكلام لا ينافى ذاك ولا يخالفه بل هو مؤيد لقوله الأول ولقول جميع أئمة المسلمين من السابقين عنه واللاحقين به إلى صاحب « مقالات الإسلام والنصرانية . مع العلم والمدنية ولو فرضنا أن بين القولين مخالفة لكان

الواجب اعتبار الأول لأنه مبين لمذهبه واعتقاده هو وسائر المسلمين على سبيل القطع . وأما قوله هنا فهو حكاية عن الفلاسفة الأولين ولا يضرنا مخالفتهم لنا مادمنا واثقين بأننا على الحق المؤيد بالبرهان . على أن ابن رشد يقول هنا إن الفلاسفة الأولين لا يعارضوننا فى هذه المسائل أى أن مقتضى مذهبهم ذلك وإلا فقد صرح بأن ليس لهم كلام فى هذه المسائل التى ذكرها ، فالخلاف بينه وبين الغزالى فى هذا المقام محصور فى نقل إنكار الفلاسفة على المليين مسألة المعجزات ومبادىء الفضائل فالغزالى يسنده إليهم على الإطلاق وابن رشد يقول : إنه لم يبحث فى ذلك إلا ابن سينا ، والخطب سهل .

أما فى الوفاق فإنك تراه بديا يتكلم عن رأى الفلاسفة فى الأديان ومباديها لا فى الإسلام الذى هو أرقاها وهو مع ذلك يعترف بأمور لا تجعل الدين (المطلق) فوق العقل ، بمعنى أن فيه ما يحيله العقل ويقطع بعدم صحته (منها) أن ما لا تدركه الفلسفة بنظرياتها فهو دليل على أن العقل الإنسانى قاصر عن الوصول إليه بنفسه فهو محتاج فيه إلى إرشاد الشرع . ولا شك أن العقل الانسانى قاصر حتى اليوم عن إدراك كل ما بين يديه ، فهو يستخدم الكهرباء وينتفع بها ولا يعرف حقيقتها فكيف يعرف أمور الآخرة والنشأة الثانية ؟ وليس معنى قولنا : إن دين الاسلام معقول أن كل مسائله يمكن أن تعرف بالعقل استقلالا ، بل معناه أنه ليس فيه شىء يحكم العقل باستحالته : ككون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً ، وكون الإله يتحد بالبشر ولولا أن هذا هو المراد لكان العقل يستقل بوضع الدين ولا يحتاج فيه إلى الوحى .

و (منها) قوله إن مبادىء الدين كالمعجزات أمور موجودة لا يشك فى وجودها والموجود لا يكون محالا لأن المحال لا يقبل الوجود ، وقوله عنهم : إن كيفية وجودها أمر إلهى تعجز عن إدراكه العقول الانسانية : لا يستلزم أن الدين غير معقول أو أن فيه شيئاً محالا فى نظر العقل ، لأن هذه الموجودات التى نحس بها ولا نشك فيها قد عجزت عقولنا عن معرفة كيفية إيجادها فعجزها عن معرفة كيفية وجود المعجزات أولى . ويسهل على كل عاقل أن يميز بين ما هو مستحيل لا يتصور العقل وجوده وبين مالا يشك فى وجوده ، لكنه لم يصل إلى معرفة كيفية حدوث هذا الوجود .

(ومنها) أن هذه المبادىء الدينية الموجودة الثابتة يجب أن تؤخذ بالتسليم والتقليد للشرع (لا لآراء الناس) من غير أن نسلط النظريات الفلسفية على البحث فى إمكانها ، وفى كيفية وجودها لأن هذا البحث سفه وضار ، وأى سفه وضرر أكبر من التشكيك فى شىء موجود نافع للناس لصدهم عن الانتفاع به بنظريات لا قيمة لها ؟ أى سفه أكبر من سفه من كان يمارى بالموجود الثابت بالمشاهدة أو التواتر (كالمعجزات) أو يلزم الإنسان بأن لا يسلك طريق الفضيلة حتى يبحث بالدلائل النظرية الفكرية فى إمكانها وفى كيفية حصولها ، وهو يرى ويشاهد أنها تحصل بالفعل وأن طريق حصولها هو العمل لا النظريات الفكرية ؟ ؟

وما أحسن ما أورده الفيلسوف فى هذا المقام أيضاً وهو :

« وأما ما نسبه (أى ما نسبه الغزالى إلى الفلاسفة) من الاعتراض على معجزة إبراهيم عليه السلام ، فشىء لم يقله إلا الزنادقة من أهل الإسلام ، فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادىء الشرائع ، وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد ، وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها مبادىء ، وواجب على الناظر فى تلك الصناعة أن يسلم مبادئها ولا يتعرض لها بنفى ولا إبطال كانت الصناعة العملية الشرعية هى أحرى بذلك ، لأن المشى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم ، ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان بل وبما هو إنسان عالم . ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم مبادىء الشريعة ، وأن يقلد فيها ولا بد من هذا الوضع لها ، فإن جحدها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان ، ولذلك وجب قتل الزنادقة . فالذى يجب أن يقال فيها : إن مباديها هى أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها ، ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم فى المعجزات مع انتشارها وظهورها فى العالم ، لأنها مبادىء تثبيت الشرائع ؛ والشرائع مبادىء الفضائل ، ولا فيما يقال فيها بعد الموت ، فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلا باطلاق ، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم فعرض له تأويل فى مبدأ من المبادىء فيجب عليه أن لا يصرح بذلك التأويل وأن يقول فيه كما قال الله تعالى (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) هـــذه حدود الشرائع ، وحدود العلماء » اهـ بحروفه من (ص ١٢٩) .

حقاً أقول : إن هذا ما يصح أن يسند إلى الحكماء العقلاء وأننا نوضحه بمثال آخر طالما ذكرناه فى مباحثنا مع الاخوان ، وهو أن الطب علم قد ثبتت فائدته للناس بالتجربة والمشاهدة ، فمن الحماقة وسفه الرأى أن يقال للمريض : عليك أن لا تقبل من الطبيب علاجاً حتى تبحث أولا عن مبادىء الطب وتثبت بالأدلة النظرية أنه نافع ومفيد ثم تعرف الدواء الذى يصفه لك الطبيب ما هو ؟ وما نسبة بعض أجزائه إلى بعض ؟ وكيف يؤثر فى مقاومة المرض ؟ وما الدليل العقلى على تأثيره ؟ وما أشبه ذلك .

كذلك يكون أفين الرأى من يقول للناس عليكم أن تبحثوا قبل الإيمان عن أسباب المعجزة الثابتة التى رأيتموها أو نقلت إليكم بالتواتر حتى كأنكم كنتم حاضريها ، كيف أوجدها الله ، ثم تبحثوا أيضاً عن كل ما جاء فى الشرع لتعلموا بالدليل النظرى لم كان كذلك ؟ وكيف ذلك ؟ وبعد هذا كله آمنوا إذا عرفتم كل المسائل بالدليل النظرى ولا تؤمنوا إذا لم تعرفوها .

يفتك المرض بمريض الجسد حتى يكون حرضاً أو يكون من الهالكين ولا يقدر أن يقف على دقائق الطب بالنظر والاستدلال ، وهو كسبي كله وضعه أمثالهمن الناس بالنظر والتجربة ، وكذلك تفتك الرذائل والعقائد الباطلة بمريض النفس فتجعله مصيبة على نفسهوعلى الناس ، ولا يصل بالنظر إلى هذه الكيفيات ، فبقى أن الصواب ما قرره الإسلام ؛ وهو أن النظر واجب فى الأصول التى تثبت بها معرفة الله تعالى وصحة النبوة ، ومتى اعتقدنا بقدرة الله وإرادته وعلمه وكونه أوحى إلى بعض عبيده وألهمهم إرشاد الناس إلى ما يسعدهم فى حياتهمالأخرى فإنه يسهل علينا أن نسلم بكل ما يقول الموحى إليهم : (الأنبياء عليهم السلام) تسليما . فإن وجدنا فيه شيئاً يخالف ظاهره الدليل العقلى القطعى نرده إليه بالتأويل أو نفوض الأمر فيه إلى الله مع الأخذ بالدليل العقلى . هـــذا ما أجمع عليه أئمة المسلمين كما تقدم وهو كاف فى كون الإسلام دين العقل ، لأن المسلم لا يترك الدليل العقلى القاطع بحال من الأحوال .

وقد أحسنابن رشد فى رأيه أن لا تنشر التأويلات التى تظهر للراسخين فى العلم بل تبقى خاصة بأهلها لئلا تكون سبباً لفتح باب الجدل على العامة فيما لا تصل إليه أفهامهم من حقائق العلوم . والجدل مدعاة الشكوك ، ولذلك يجب تأديب المشككين والإعراض عن المجادلين .

إرتقاء الأديان، وختمها بالإسلام

جاء فى « رسالة التوحيد » للأستاذ الإمام ما نصه

جاءت أديان والناس فى فهم مصالحهم العامة بل والخاصة فى طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول من المعانى مالا يقرب من لمسه ، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يلقى إليه فيما يصله بغيره ، اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام ، أو تسنده فى قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الأديان ، أن تخاطب الناس بما يلطف من الوجـــدان ، أو يرقى عليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن ، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو بصره . فأخذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة ، وطالبتهم بالطاعة ، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى ، جلى الغاية وإن لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم إلى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه [1] .

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الأقوام وسقطت ، وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياما ، ووجدت الأنس بنفث الحوادث ، ولقن الكوارث شعوراً أدق من الحس وأدخل فى الوجدان ، لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النسلء أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ، ويناجى المراحم ، ويستعطف الأهواء : ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس

---

(١) المنار . المعروف إلى الآن من هذه الأديان دين اليهود ومن قرأ كتبه المقدسة التى يسمون مجموعها (التوراة) ينجلى له انطباق الوصف عليهم ففيها أن الرب كان يلقب شعب اسرائيل بالشعب « الغليظ الرقبة » أى العريض القفا ، والمراد البليد الجافى ، وكان يريه الآيات والمخاوف فيخضع ثم يعود إلى تمرده وكان يعلل له الأحكام بالوقائع الخاصة كانجائه من المصريين وكان يعاقبه على ترك أى حكم بأشد العقوبة . ومنها أن من يعمل يوم السبت عمل يقتل قتلا .

من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق ، أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء ، وما ينحو نحو هذا مما هو معروف . وسن للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه ، وما دعاهم إليه ، فلاقى من تعلق الناس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها .

ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشريه عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووفر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال ، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل . وأضافوا إليه ما شاء الهوى من الأباطيل ، هذا كان شأنهم فى السجايا ، نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما فى العقائد فتفرقوا شيعاً ، وأحدثوا بدعاً ، ولم يتمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه وفى غيره من دقائق الأكوان ، والخطر على الأفكار أن تنفذ إلى شىء من سرائر الخلقة ، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة ، وأفضى الغلو فى ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الإنسانى ، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين . فتقوض الأصل ، وتخرمت العلائق بين الأهل ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون ، والحرب محل السلام ، وكان الناس على ذلك إلى أن جاء دين الإسلام[1]

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالإنسان أشده ، وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده ، فجاء الإسلام يخاطب العقل ، ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والإحساس ، فى إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية .

---

(١) المنار : يرى الناظر أن الأستاذ الإمام يلصق جميع ما ابتدع فى النصرانية وكان شؤما على الإنسانية ، بالرؤساء الذين خرجوا من زهادة المسيح — ويدعون أنهم نوابه — إلى مزاحمة الملوك والاستعلاء عليهم . فلا يتوهمن أحد أن مسلماً يعتقد أن فى دين المسيح نفسه شيئاً كان ضارا بذاته بمن خوطبوا به .

وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد ، ومشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح ، إنما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وأن الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب ؛ وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الأمرين طهراً مطلوباً ، وجعل روح العبادة الإخلاص ، وأن ما فرض من الأعمال إنما هو لما أوجب من النطبع بطاهر الملكات : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (إن الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين) ورفع الغنى الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ، وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة . وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضاه الله وشكر نعمته وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول إلى خير العقبى إلا بالسعى فى إصلاح الدنيا .

(ثم قال) « كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الإنسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى لا يغيرها شىء من الطوارىء الجزئية ، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيا ذكره عند رؤيتها . فقد جاء على النبى صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا اسم الله » [1] وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم والمصائب التى يرزؤن بها ففصل بين الأمرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما .

ثم بعد أن ذكر الأستاذ حال الأفراد وأن ما يصيبهم قد يكون بكسبهم وقد يكون بغير ذلك قال :

---

(١) كسفت الشمس يوم مات ابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم . فظن بعض الناس أنها كسفت لموته . فقاله . رواه البخارى وغيره .

« أما شأن الأمم فليس على ذلك ، فإن الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر وتأديب الأهواء ، وتحديده مطامح الشهوات ، والدخول فى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح فى الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل — ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) ولن يسلب الله نعمته مادام هذا الروح فيها . يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه ، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره ، وتبعتها إلى مقـــره ، واستبدل الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ، ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ، (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا) وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه « اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبه » على هـذا السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماض فى غلوائه ، « وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئاً » اهـ المراد هنا من رسالة التوحيد .

تشبيه التعليم الدينى بتعليم المدارس

هذا ما قاله الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد التى طبعت لأول مرة سنة ١٣١٥ هجرية وقرر مجلس إدارة الأزهر تدريسها رسمياً فى الجامع الأزهر ، ومعلوم أن رئيس هذا المجلس هو شيخ الجامع ، فهو من سائر العلماء أعضاء المجلس ، بل وسائر علماء الأزهر متفقون على ما فى هذه الرسالة . ومما تقـــدم عنها يعلم معنى كون

دين الإسلام هو دين العقل . والقرآن يشهد بهذا فى عشرات ومئات من الآيات . ويعلم أيضاً أن المسلمين يعتقدون بحقيقة الديانه المسيحية ، وكونها جاءت إصلاحاً للناس ولكن إلى أجل محدود قد انتهى واستغنى عنها بالدين الأخير .

تقدم أن دين الله واحد (لا نفرق بين أحد من رسله) وأن خطاب الوحى كان يختلف باختلاف استعداد الناس . فالشريعة الموسوية وما شاكلها مما كان قبلها ودرس كالمدرسة الابتدائية . والديانة المسيحية كالمدرسة التجهيزية ، والديانة الإسلامية كالمدرسة العليا التى هى التعليم الأخير . وهذا لا يتضمن انتقاص اليهودية والمسيحية ، كما أن وجود المدارس العالية لا يقتضى انتقاص المدرسة الأولى أو الثانية لأن كلا منهما لا بد منه ، والغرض من الجميع واحد . ولا تنس أن التشبيه بالنسبة إلى مجموع البشر فى الجملة ، فلا يقال ينبغى أن يكون كل فرد من الناس يهودياً ثم نصرانياً ثم مسلماً ، وهذا الذى قلناه مؤيد بما أرشد إليه العلم الصحيح من سنة الإرتقاء البشرى ، وقد جرى الناس على ذلك بحكم تلك السنة فدخل الملايين من اليهود والنصارى فى الإسلام أفواجاً ، وكانوا فى ذلك كمن انتقل من مدرسة إلى مدرسة أعلى منها ، ولولا الرؤساء الذين جعلوا الدين تقليدياً وجعلوا عليه سياجاً من القوى الحسية والوهمية ؛ ولولا الطوارىء التى طرأت على سير الإسلام بواسطة الرؤساء من الملوك والأمراء ، وفتنتهم للعلماء والفقهاء ، لما بقى للأديان الأولى من الأتباع ما يكونون به أمماً كبيرة (ص ٨٠٧ الخ م ٥) .

المقالة السادسة عشرة

السلطتان الدينية والمدنية

وهى رد على انظار الجامعة السلطة المدنية والشريعة فى الإسلام

نحن المسلمين نعتقد أن دين الله تعالى واحد فى جوهره ، وأن البيان والهدى فيه إنما يختلف باختلاف الأزمنة ، وأن الناس كانوا فى كل زمان يأخذون من هداية الدين بقدر استعدادهم ، وأن حالة الاجتماع فى الأمم السابقة كانت قاضية بإضاعة كتب الدين كلها أو بعضها إذا طال الأمد على من جاء بها ، وأن أقرب الملل

ظهوراً من الإسلام لم تسلم من هـذه الإضاعة ، وأن الإسـلام هو الدين الوحيد الذى حفظ كتابه كله ، وظهر فى وقت ارتقت فيه حالة الاجتماع حتى يمكننا أن نحكم بأنه لم تتلاش ثمرة من ثمـار العقول بعد الإسلام ولن تتلاشى ، فهو مبـدأ تاريخ جديد فى البشر .

قلنا : إن أقرب الملل زمناً من الإسلام لم تسلم من الضياع ، وظاهر أننا نعنى اليهودية والنصرانيـة ، فـكل من الفريقين قد فقد السند المتصل لـكتبه المقدسـة ، فهو غير موجود قولا ولا كتابة . وهذا هو المراد بقوله تعالى فيهم (أوتوا نصيباً من الـكتاب) وقوله عز وجلى فى كل منهما (فنسوا حظاً مما ذكروا به) ، والحظ بمعنى النصيب ، أى أنهم حفظوا بعض ما أوتوه ونسوا بعضه . ومتى ذهب بعض الدين صار الباقى غير موثوق به وإن سلم من التحريف فيه والإضافة ، فكيف إذا لم يسلم ؟ وقد أنزل الله تعـالى القرآن (مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليـه) والمراد بالـكتاب الجنس ، والمهيمن المراقب الذى عنده نبأ ما يراقبه ، فما صدقه القرآن من تلك الـكتب فهو من النصـيب الذى أوتوه ، وما أخبر به وليس موجوداً فهو من الحظ الذى نسوه ، وما كذبه فهو مما زادوه وأضافوه ، فهو الحـكم العـــدل (وإنه لقول فصل وما هو بالهزل) .

وكان الواجب أن يحكموه فيما شجر ، وينتهوا عما نهى ويأتمروا بما أمر . وكذلك فعل الموافقون ، وصد عنه الآخرون . والسبب فى الصدود هو السلطة الدينية التى جعل ذووها لمصلحتهم تقليدياً محضاً مقود عقائده بأيدى الرؤسـاء مثل الأحبار والأساقفة يقلدونها الناس ويحمونهم سـواها . وينشئون الأحداث من الذكران والأناث ، على اعتقـاد وجوب التسليم لهم ، والرجوع فى كل أمر الدين إليهم ، ولا يزال أثر هذه التنشئة ظاهراً فيمن يربى فى مدارس القسيسين ، فتراه يناظرك فى المسألة ، فإذا قامت حجتك ، قال إن هذا الذى تقول ظاهر فى نفسه ومعقول ، ولـكنه من أمر الدين والقسـيس يقول بخلافه ، ولا قول فى الدين إلا ما يقول القسيس ، ولا يشترط أن يكون قوله معقولا ولا مفهوما ! !

فإذا قال النصرانى : إن السلطة الدينيـة مثار التعصب الذميم ، ومبعث العداوة والبغضاء بين الجيران والأقربين . والحجاب دون المساواة بين أهل الوطن الواحد

فى الحقوق ، والقيـد الذى تقيد به الإرادة والعزيمة ، والغل الذى يغـل به العقل والفكر ، فالمسلم يصدقه ولا ينازعه ، يصدقه حامداً لله تعالى أن ليس فى دينه طائفة جعل لها الإسلام حق السيطرة على العقول والأرواح ، تودع فيهاما تشاء ، وتحرمها مما تشاء ، وتتصرف فى المسلمين باسم الدين كما تشاء . ثم يلتفت فيرى أن المسـلمين الذين قلدوا الرؤساء الروحيين عنـد النصارى لم يبلغوا أن صار لهم سـلطة حقيقة منتظمة يحاسبون بها الأفكار على خواطـــرها ، والعقول على معارفها ، بل هؤلاء هم الذين كانوا يتسامحون مع الفكر والخيال مالا يتسامح غيرهم ويعدون كل معرفة تقرب من الله تعالى ، لأنهم يقولون : إن لله طرائق ، بعدد أنفاس الخلائق ، ثم يلتفت من جانب آخر فيرى أن هؤلاء المقلدين فى السـلطان الروحانى لا تعظم سلطتهم إلا من حيث يصغر العلم بالدين ، ولا يقوى نفوذهم إلا حيث يضعف نفوذ الحكم الإسلامى ، وما عز لهم سـلطان فى مكان ، إلا وكان وبالا على المسـلمين والإسلام ، فإن كنت نسيت حوادث مهدى السودان فأمامك حادثة خارجى مراكش الآن .

للعلماء والعقلاء والكتاب والخطباء أن يقولوا فى السـلطة الدينية النصرانيـة ما شاءوا ، ولهم أن يسعوا فى فصـلها وإبعادها عن السلطة المدنية ما استطاعوا ، فإنها سلطة كانت ولا تزال ضارة حيث وجدت وتوجد ، وكان معظم ضررها أيام كانت مقرونة بالسلطة المدنية ، لهم أن يسموها سلطة ، فإن لها فى كل مملكة رئيساً عاماً يولى سائر الرؤساء فى المملكة ، وهؤلاء الرؤساءالذين هم أركان سلطته منبثون فى كل مدينةوفى كل قرية : ولا يوجد حكام مدنيون فى جميع القرى والمزارع ، كما يوجد هؤلاء الحكام الروحانيون ، ولهم أن يقاووا هذه الحكومة ويقاوموها ، ولهم أن يخضدوا من شوكتها ، ويضعفوا من صولتها ، ولهم أن يقولوا إنه لولا فصلهـا عن السلطة المدنية ، لمـا تنسمنا نسيم الحرية ، ولهم أن يعذروا الأمة الفرنسية ، إذا حاولت اصطلام هذه السلطة بالـكلية ، المسلم يعذرهم فى كل هـــذا ، لأنه من الإصطلاح الذى جاء به الإسلام ، كما ألمعنا فى صدر هذا المقال . فمن لم يأخذه من الإسلام مباشرة فله أن يأخذه من نظام الفطرة إذا هداه العلم إليه ، وما الإسلام إلا دين الفطرة الهادى إلى نظامها وسنن الله فيها .

ومن الظلم البين أن يرى الإسـلام نفسه بتقرير السـلطة الدينية المعروفة عند

النصارى . والإسلام هو الذى أبطل كل سلطة يكون بها فريق مسيطراً على روح فريق وحاكما على حريته فى غير ما يحرمه الشرع على كل رئيس ومرؤس . إن الذين اتبعوا سنن من قبلهم وقلدوهم فى مثل هذا الأمر لم يتقنوا التقليد ، وكان روح الإسلام مانعاً أن يبلغوا منــــه كل ما أرادوا . ولكن الإسلام لم يسلم من أعداء يلصقون به كل عيوبهم ، ويقولون عليه الكذب وهم يعلمون ، نعم إنهم يخلقون عليه إفكا لأنهم اطلعوا على ما كتبنا وكتب بعض الأئمة فى بيان نفى هذه السلطة ، ثم لا يفتأون يعيبون الإسلام بها ولهم غرض يرمون إليه وراء تشكيك المسلمين فى دينهم وتنفيرهم منه ، وقد أشرنا إليه فى مقال مضى ، ووعدنا ببيان الحق فيه كما بيناه فى غير ذلك من شكوكهم وشبهاتهم .

شاهد فى الموضوع من منار السنة الأولى

صدر العدد ٢٢ من منار السنة الأولى بمقالة فى (سلطة مشيخة الطريق الروحية) قلنا فى أولها : « لقد أتى على الإنسان فى طور اجتماعه أدوار ، ومرت عليه أجيال وأعصار ، وهو مغلول الإرادة ومقيد الجوارح بسلطتين عظيمتين قويتين ، للقائمين عليها النفوذ التام فى أفراده ، والتصرف المطلق فى آحاده ، وهما سلطة الدين وسلطة السياسه — أو كما يقول أهل العصر — السلطة الروحية والسلطة الزمنية » .

ثم قلنا بعد كلام فى حال هاتين السلطتين وتأثيرهما ، وحال الأمة التى تحكم بهما ما نصه :

« وبالجملة إن أمة هذا شأنها تكون دائماً متقلقلة كقدح الراكب لا تثبت على حال ولا تستقر على شأن . وجميع ما انتاب الأمم من رفعة وضعة وعلم وجهل وسعادة وشقاء ، فقد كان مرجعه إلى تصرف الأمراء والحاكمين : والرؤساء الروحيين ، ولقد كان الشر أغلب على الأمم من الخير ، والشقاء أشمل لها من السعادة . لأن الرئيس الفاضل الحكيم لا يأمن من العثار ، وإذا عثر عثرت معه الأمة وهوت ، وقد يهدم الرئيس الجاهل الغوى فى مدة قليلة ، ما بنته الحكماء فى الأجيال الطويلة .

ولهذا كانت سعادة البشر موقوفة فى نيلها أو كمالها على تحديد القوانين والشرائع

الروحية والزمنية (المدنية) وجعل الناس فيها شرعا (أى سواء) لا مزية لرئيس على مرؤس إلا بما يمتاز به المرؤسون بعضهم على بعض وبما لا تقوم الرياسة بدونه ، كوجوب الطاعة للسلطان ، ولا طاعة لأحد على أحد فيما وراء الشريعة والقانون . ولكن لم تأت شريعة سماوية ولم يوضع قانون بشرى لهذا التحديد والمساواة ، حتى جاءت الديانة الإسلامية فحددت الشريعتين (المدنية والروحية) معاً ، وجعلت الناس فيها سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالعلم والعمل ، واقتلعت جذور الطاعة العمياء وبينت أن الدعوة إلى الحق لا تكون إلا بالحجة والبرهان ، بمثل قوله تعالى : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) فسر العلماء البصيرة بالحجة الواضحة . وقوله تعالى : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

« وبناء على هذا كان الصحابة يراجعون النبى ﷺ الرأى قائلين : هل هذا شيء قلته من عندك يارسول الله أم نزل به وحى ؟ فإن قال هو من عندى جاءوا بما عندهم من الرأى وربما رجع النبى إلى رأيهم كما جرى فى بعض الغزوات (منها بدروأحد) وأوقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الإمام علياً مع رجل من آحاد يهود للمحاكمة وعاتبه على بعد المحاكمة بأنه لم يساو بينه وبين خصمه لأنه كناه وسمى خصمه ، وفى التكنية تعظيم ، وتعظيم أحد الخصمين ولو بمثل هذا مناف للعدالة والمساواة ، وراجعت امرأة عمر وهو على المنبر فى مسألة تحديد المهر محتجة عليه بآية (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا) ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

« وأبلغ من هذا أن النبى عليه الصلاة والسلام طعن سواد بن غزية بقدح (سهم لا نصل له ولا ريش) فى بطنه وهو مكشوف ليستوى فى الصف يوم بدر فقال : قد أوجعتنى فأقدنى . فكشف له عن بطنه ليقتص منه فطفق يتمسح به ، وكان ذلك منه توسلا للتوسل إلى هذا الشرف العظيم . وآذن الناس قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه وإذا كان نحو ضرب فليقتص منه ، وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى أنه ضربه يوماً فقال الرجل : إننى كنت عارى الكتف أو الظهر (شك من الراوى) فألقى له الرداء عن عاتقه الشريف ، وكان شأنه فى ذلك شأن سواد بن غزية .

« والنتيجة أن الإسلام قرر العبودية لله وحده والحرية فى ضمن دائرة الشريعة

والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات وإطلاق الإرادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس روحى ومقتضى ذلك أن يكون المسلم عبداً كاملا لله حراً كاملا بالنسبة إلى ما سواه »

هذا بعض ما قلناه فى المسألة من نحو خمس سنين وبعده كلام فى سلطة مشيخة الطريق كيف ظهرت وماذا أعقبت .

مجمل الدلائل على نفى السلطة الدينية فى الإسلام

(١) أقوى الدلائل على أنه لا سلطة دينية فى الإسلام كما فى النصرانية تحديد وظيفة الرسول فى القرآن بأنه مبلغ لا مسيطر ولا وكيل ولا جبار على الناس قال تعالى (إن عليك إلا البلاغ) وقال عز وجل (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وقال تبارك شأنه (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقال عز اسمه (وما أنت عليهم بجبار) وقال تعالى جده (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) وقال جل جلاله (وما أنت عليهم بوكيل) فأين هذا كله من ملة يدعى رؤساؤها أنهم وكلاء الله فى الأرض . هل يقاس النقيض على النقيض ؟ ؟ .

(٢) سيرة النبى عليه الصلاة والسلام فقد سمعت آنفاً أنه كان يقيد من نفسه ويرجع عن رأيه إلى رأى أصحابه ، وأعجب من هذا أنه رجح الرأى الموافق لرأيه فى مسألة أسرى بدر وكان الرأى الآخر هو الأصلح فعتابه الله عتاباً شديداً حتى بكى عليه الصلاة والسلام .

(٣) سيرة الخلفاء الراشدين كما سمعت آنفاً عن عمر ويؤثر مثله عن سائرهم ولم تكن سيرتهم فى المساواة وفى تحكيم الأمة بأنفسهم من مزاياهم الشخصية ، وإنما هو شيء أخذوه من القرآن ومن السيرة النبوية كما علمت وإنما مزيتهم أنهم فهموا الإسلام كله وكانوا أشد من غيرهم غيرة عليه وعملا به .

(٤) لو كان الإسلام شرع هذه السلطة المعروفة فى الملل السابقة عليه من البوذيين والبرهمة والإسرائيليين والنصارى أو أجازها لوجد لها فى المسلمين نظام ورؤساء كما وجد عند غيرهم ولكن شيئاً من ذلك لم يوجد ، وإنما وجدت طائفة

تصدت للتربية والإرشاد ثم انقسمت إلى طوائف وجماعات ولم يكن لهم سلطة على أحد ، وإنما يتبعهم من شاء باختياره ولم يسلموا مع ذلك من رمى الفقهاء لهم بالانحراف عن الدين ومن تفريق الحكام شملهم ، ولذلك لم يكن لهم ظهور إلا حيث يضعف علم الدين وحكمه كما قلنا آنفاً . وأما لقب « شيخ الإسلام » فهو من اختراع الملوك والأمراء الذين بعدوا عن المظهر الدينى فاستعانوا بمن له هذا المظهر لأجل التأثير فى نفوس العامة المقلدين .

نعم إن السلطة الدينية وجدت على حقيقتها فى طائفة الباطنية ثم وجدت لهذه الطائفة حكومة مدنية فى العبيديين (الفاطميين) ولكن مذهب الباطنية ليس من الإسلام فى شىء ، ولذلك لم يستطع العبيديون أن يؤيدوه بسلطتهم تأييداً ظاهراً ، فيقال إن السلطة الدينية قد اجتمعت مع السلطة المدنية فى طائفة تنتمى إلى الإسلام فى الجملة . فعلم مما تقدم أنه ليس فى الإسلام سلطة دينية فما هذا الذى يعيب الإسلام به بعض كتاب النصارى وماهذه النصائح التى توجهها تلك الأقلام إلى الأمة الإسلامية لتقنعها بوجوب الفصل بين السلطتين الدينية والمدنية ؟ الجواب : أن المراد بذلك أن يترك المسلمون شريعتهم كما يعلم من الفصل الآتى :

الشريعة والدين فى الإسلام

جرى عرف الكتاب الأوربيين ومن تبعهم من الشرقيين لا سيما كتاب النصارى بأن يطلقوا اسم الدين على ما يتعلق بالاعتقاد بالله وبالوحى وما يعد ويخبر به من أمور الغيب وما يفرضه من العبادة ويخصوا كلمة الشريعة بما يتعلق بالمعاملات والأحكام القضائية والمدنية والسياسية ، وكل باحث فى التاريخ من هؤلاء الكتاب يعلم أن الإسلام جاء بدين وشريعة ، ومن ذلك قول بعضهم : إن محمداً (عليه الصلاة والسلام) كون فى عشرين سنة أمة وجاءها بدين وشريعة ولم يتفق لغيره فى العالم الجمع بين هذه الأمور الثلاثة : فهؤلاء يعلمون أن الشريعة قسيمة الدين فى الإسلام وأن ما يدين به المسلم ربه وما يعامل به الناس كله مقتبس من نور واحد ، وهو نور الوحى الذى أوحاه الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

لا فرق فى الإسلام بين القسم الدينى البحت والقسم الشرعى إلا فى شىء واحد

وهو أن الاعتقاد والعبادة لما كانا لا يختلفان باختلاف الزمان والمكان وأحوال الأمم وجب الاعتماد فيهما على الوحى فى الجملة والتفصيل والكليات والجزئيات . وأما المعاملات الدنيوية فلاختلافها باختلاف ماذكر قد وضع الإسلام لها قواعد كلية وأصولا عامة وفوض استنباط الجزئيات التى تحدث إلى أولى الأمر العارفين بمقاصد الإسلام وأصوله وقواعده الكلية فهم يبينون الأحكام بالشورى فى كل مايحدث الناس من المصالح استنباطا من تلك الأصول والقواعد . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) فذكر أولى الأمر بصيغة الجمع . وقال (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ذكر أولى الأمر منهم بصيغة الجمع أيضاً وأناط بهم استنباط الحكم الذى يحتاج اليه أو يتنازع فيه .

ثم إن الأحكام الشرعية المنصوصة أو المستنبطة تحتاج إلى منفذين ولا بد أن يكون لهؤلاء رئيس لئلا تكون الأمور فوضى وقد سمى الرئيس الأول فى الإسلام بعد وفاة النبى ﷺ خليفة له وسمى من بعد أمير المؤمنين ، واستمر هذا اللقب ووظيفة هذا الرئيس حماية الدين وأهله وتنفيذ أحكام شريعته فليس هو مسيطرا على الناس فى دينهم ولا مستقلا بوضع الأحكام الشرعية لهم ، وإنما هو حافظ للنظام ، ومنفذ للأحكام وسلطته هذه كما ترى مدنية شوريه . لا مطلقة ولا استبدادية، ولكن الإسلام أوجب عليه أن يعمل بالشرع وحرم عليه أن يكون شارعاً بنفسه وأوجب طاعته بالمعروف . كما أوجب على الأمة إزالة سلطانه إن حملها على غير المشروع ، فصح بهذا الاعتبار أن يقال إن السلطة المدنية فى الإسلام مستندة إلى الدين أو انها سلطة دينية ، ولكن لا يصح أن تشبه بالسلطة الدينية عند غير المسلمين ولا أن يجعل صاحبها جامعا بين سلطتين إحداهما على الأرواح والعقول والثانية على الأجسام والأعمال .

هذا هو ديننا وهذه هى سلطته ، فماذا يطالبنا ذلك الكاتب النصرانى ، وبما ينصح لنا ؟ هو يطالبنا بأن نجعل رئيسنا المدنى شارعاً ومنفذاً لما يشرعه لنا من الأحكام وينصح لنا بأن نترك شريعتنا القائمة على أصول ديننا ويزعم أن بناء الشريعة على قواعد الدين ، وجعل الحكام حماة للدين ومنفذين له هو الذى أزال الدولة العباسية وفرق شمل الأمة الاسلامية . ومن رأيه أن المسلمين لا ينجحون ولا تقوم لهم قائمة مادام سلطانهم مكلفاً بالعمل بشريعتهم الدينية وتنفيذها ! !

لو جمعت كل ماورد من الكلم فى جميع اللغات ليدل على معنى التعجب وأضفت اليه كل امارات التعجب ودلائله فى الحركات والاشارات العضوية والقلبية وقدرت على تصوير جميع انفعالات المتعجبين وتأثراتهم النفسية وألصقت ذلك كله بهذه النصيحة النصرانية للأمة الاسلامية لما وفيت حق البيان فى كونها عجيبة غريبة مدهشة للمتعجبين !!

شبهات المشكك

(١) يقول هذا الناصح الأمين ، أو المشكك فى الدين : إن غرض الدين فى الأرض مناقض لغرض الحكومة فى الأرض ، فكيف يجمع الإسلام بين النقيضين؟ ونحن نقول له : إن الاسلام جاء للاصلاح فى الأرض ، وكل ماينافض الاصلاح فهو إفساد تجب إزالته ، فالواجب أن يكون غرض الحكومة الاسلامية موافقا لغرض الدين الاسلامى . ومما لا خلاف فيه بين فقهاء الإسلام أن أحكامه الشرعية كلها مبنية على قاعدة « درء المفاسد وجلب المصالح » فأى حاكم من حكامنا يقدر أن يأتينا بشرع أصلح من هذا الشرع إذا نحن تركناه عملا بنصيحتك وجعلنا الحاكم هو الشارع ؟؟

(٢) يقول الناصح الأمين ، أو المشكك فى الدين : إن من التناقض بين وظيفة الدين ووظيفة الحكومة أن الدين وضع قواعد وتقاليد للعقل وطرقا لسير الفكر فقيد بذلك الحرية العلمية . والحكومة لا تكلف الإنسان بأن يسير فى فكره على طريق مخصوص وإنما هى حامية لحرية النفس وما يتبعها من المال والدم والشرف، ونحن نقول : إذا كان دينك كذلك فدين الإسلام مناقض له غير مناقض لوظيفة الحكومة التى ذكرتها . وذلك أنه تقرر فيه حرية العقل فلا يخرج المسلم عن حكمه فى عقائده (كما بينا ذلك فى الجزء الماضى) وتقرر أن أحكامه ترجع إلى خمس قواعد يسمونها الكليات الخمس ، وقد جمعها صاحب عقيدة الجوهرة بقوله :

وحفظ دين ثم نفس مال نسب ومثلها عقل وعرض قد وجب

(٣) يقول الناصح الأمين ، أو المشكك فى الدين : يجب أن تكون الحكومة مساوية بين من تحكمهم ، وإن اختلفت أديانهم وأن تكون حامية لهم على السواء

أيضا . والدين مناقض لها فى ذلك . ونحن نقول : إذا كان دينك كذلك فديننا مناقض له لا لما يجب أن تكون عليه الحكومة . وذلك أن المساواة من أصوله وقد أشرنا فى الفصل السابق من هذا المقال إلى مساواة عمر بين الامام على ورجل من آحاد اليهود ومطالبة على له بالمساواة فى اللقب أيضا ، وهذه مساواة لم تصل اليها حكومة ولن تصل اليها حكومة إلا أن تكون مقيمة للإسلام على حقه . وأما الحماية فمن الأصول المأثورة فى ديننا هذه الكلمة الجليلة « وأن نحميهم مما نحمى منه أنفسنا » وهذه الكلمة الفضلى « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » .

(٤) يقول الناصح الأمين ، أو المشكك فى الدين : إنه ليس من شأن السلطة الدينية الدخول فى الأمور الدنيوية ، لأن الأديان شرعت لتدبير الآخرة لا لتدبير الدنيا . ونحن نقول : إذا كان دينك كذلك فديننا ليس كذلك ، فانه شرع لبيان مصالح الدارين ، والارشاد إلى طرق السعادتين ، فكيف تحكم على الأديان كافة بما تعتقده فى دينك ؟ وهل كنت أنت الواضع للأديان كلها فتقول : إنى وضعت دين الإسلام هكذا أيضاً وأهله قد زادوا فيه فأنا الآن أطالبهم بالرجوع إلى الأصل إن المسلمين لا يقبلون منك ذلك لآن أئمتهم عرفوا الدين بأنه وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارها إلى مافيه صلاحهم فى الحال ، وفلاحهم فى المآل .

(٥) يقول الناصح الأمين ، أو المشكك فى الدين : إن الجمع بين السلطتين يضعف الأمة ضعفا مستمراً لأنه يقتضى اضطهاد العقل والذكاء ويعرض الحكومة لثورة الأمة باغراء عدو يثيرها عليها ، ويكون سبب الشقاء الدينى بين الطوائف التى تتألف منها الشعوب ويعرض الدين لأكاذيب السياسة ومفاسدها . ونحن نقول : إن كل هذا وقع فى دينه فلا ننكره ، وإنما ننكر قياس ديننا عليه وهو مباين له . وحسبنا أن الذى وقع عندنا هو نقيض ماوقع عندهم فإن الحكومة الإسلامية التى يسميها جمعا بين السلطتين (وقد فهمت معناها) قد أعطت الأمة قوة لم يقاوها فيها أحد فى زمنها وما ضعفت الأمة الإسلامية إلا بضعف الشرع وعدم إقامته وهذا أمر لاخلاف فيه . كذلك لم يضطهد العقل والذكاء فى الإسلام فى عصر إقامة شريعة الإسلام وانما وقع شبه اضطهاد بعد ضعف الشرع والتهاون فى تنفيذه. أما الثورات التى يخافها الناصح على الحكومات الإسلامية إذا بقيت على شريعتها فهى أجدر بالوقوع إذا خرجت الحكومات عن الشريعة لأن الخروج على السلطان

لا يجوز فى الإسلام إلا إذا خرج السلطان من الإسلام بترك الشريعة ، وإذا أخطأ فالواجب أن ترجعه الأمة عن خطأه بالمعروف ، قال صاحب عقيدة الجوهرة :

وواجب نصب إمام عدل ... بالشرع فاعلم لا بحكم العقل
فليس ركنا يعتقد فى الدين ... فلا تحد عن حكمه المبين
الا بكفر فانبذن عهده ... فالله يكفينا أذاه وحده

وأما الشقاق الدينى بين الطوائف والملل فلم يعهد فى بلاد الإسلام أيام إقامة الشريعة والعمل بها بل كانت الطوائف فى هدوء وسلام لأن الدين يوجب ذلك وكان معمولا به . والذى يوجب الشقاق هو جعل الدين مصلحة لرؤساء مخصوصين يناهض كل رئيس بطائفته سائر الطوائف ، فهو ألصق بالفصل بين السلطتين وجعل كل واحدة مستقلة لها رؤساء يديرونها منــــه بالجمع بينهما خصوصاً جمع الإسلام بالمعنى المتقدم . وقد ذاقت الأمة النصرانية بأس هذه الرياسة ، وكانت هى التى ابتدعت الحرب بين طائفتين من أهل دين واحد للخلاف فى الدين ولو لم يكن لكل طائفة رؤساء مخصوصون لما وقع شىء من ذلك . وقد سرى عدوى النصرانية إلى غيرها ، وأصاب المسلمين شرر تلك النيران ، فحدث بين أصحاب المذاهب شىء من الشقاق لتعصب كل طائفة لإمام مخصوص وعلماء مخصوصين . وقد علمت أن رجال الدين لم تنظم لهم فى المسلمين رياسة لأن طبيعة الإسلام تأبى ذلك ولهذا لم يعظم النفور والشقاق بين أصحاب المذاهب الإسلامية كما عظم بين أرباب المذاهب النصرانية . على أن المذاهب المتعددة فى الدين هى مخالفة لوضع الدين لأنها تفرق فيه ، والله يقول « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ويقول « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » . ولكن جاءنا من كتاب النصارى فى هذا العصر من يقول فينا إن التفرق إلى شيع من طبيعة ديننا ولا علاج لهذا التفرق إلا ترك حكامنا لشريعتنا ! !

وأما تعريض الدين لأكاذيب السياسة ومفاسدها إذا كانت الشريعة مستمدة من الدين فهو نقيض المعقول وخلاف الواقع فإن السياسة كما قال الكاتب مبنية على الرياء والمخاتلة ، ولا علاج للرياء إلا الدين ، وقد شدد فيه الإسلام حتى سماه « الشرك الأصغر » فإذا بنيت السياسة على قاعدة الدين سلمت وسلم معها الدين ، وإذا انفصلت من الدين فسدت وأفسدت الدين ، ولذلك استعاذ منها الإمام كاتب

مقالات (الإسلام والنصرانية) بما استعاذ ، ووصفها بما وصف . وقد قلب الحقيقة الناصح أو المشكك لجعل انفصال الحكومة من الدين هو سبب السلامة ! !

الوحدة الدينية ، والوطنية

يقول الناصح الأمين ، أو المشكك فى الدين ، إن الوحدة الدينية التى يطلبها الإسلام مستحيلة الوقوع ومحاولتها كان أكبر أسباب الفتن التى حدثت فى الإسلام والمسيحية . ويزعم أن البشر قد ارتقوا عن طلب الوحدة الدينية التى كانت عامة فيهم إلى الوحدة الوطنية ، وتدحرج فى البيان إلى ذكر فرنسا التى ارتقت فيها هذه الوحدة الجديدة التى حصر فيها سعادة البشر حتى حكمت بإبطال مدارس الرهبنات . وحتى حرمت على رئيسها ذكر اسم الله تعالى ، أو ذكر العناية الإلهية فى خطبه . وههنا شعر بأن هذا التدحرج قد انهار به فى هوة الباطل ، فعاد يعترض على هذه « الطريقة الجديدة » ويذكر من مفاسدها . وهكذا شأن من يهرف بما لا يعرف ، وقد استدل على استحالة الوحدة الدينية بما كان فى أوربا من المفاسد والفتن بسببها وبعدم نجاح البابا فيها ، وبعادة أوربا بعد إقامة السد بينه وبين الأحكام . ثم جرى على عادته فى تشبيه الإسلام بالنصرانية ، فزعم أن الذى أسقط دولة بنى العباس هو عجزهم عن حفظ المملكة بالوحدة الدينية ، وعدم اهتدائهم إلى الوحدة الوطنية ! ! ! سبحان الله ما أعلم هذا الكاتب بالتاريخ ، وما أقدره على استخراج طبائع الملل منه ! !

خبرونا أيها المؤرخون والمطلعون على كتب التاريخ : أى مؤلف قال إن سبب سقوط بنى العباس هو حكمهم بالشريعة الإسلامية ، أو قال إن أصحاب الملل المختلفة فى بلادهم كانوا ساخطين على الحكم بالشريعة وطالبين أن تستبدل بها قوانين غيرها يضعها الحكام أو المحكومون ، وإنهم لذلك ثاروا على الدولة حتى أسقطوها بالحروب الأهلية التى مثارها التعصبات الدينية ؟ لم يقل بذلك عالم ولا جاهل ، وإنما هو زعم افتحره وافتجره واخترعه وابتدعه ناصح المسلمين الأمين ، أو مشككهم فى الدين .

لسقوط دولة العباسيين أسباب أهمها أمران ذكرهما مؤرخ الدولة العثمانية الأكبر جودت باشا ناظر العدلية (رحمه الله تعالى) قال بعد ما ذكر فضل المأمون فى ترويج العلوم وتوسيع نطاق المدنية ما تعريبه « إلا أنه أخطأ خطأ بينا فى أمر

يتعلق بتدبير المملكة ، وهو أنه أعطى ولاية خراسان لرجل يسمى طاهراً مكافأة له على قتل أخيه الأمين ، فاتخذ نيسابور عاصمة لها وجعلها موروثة له ولأعقابه من بعده فكان ذلك باعثاً على إزالة رهبة الخلافة من صدور العمال ، وسبباً فى الخروج عن الطاعة والنزوع إلى الاستقلال ، ثم جاء بعده الخليفة المعتصم فجمع بعض الأحداث من الترك وجعلهم عسكراً خاصاً به ولما اشتد ساعدهم خرجوا عن طاعته وأحدثوا ثورات هائلة ، كما وقع قديماً فى عسكر قياصرة رومية » .

وظاهر أن ما عمله المأمون مخالف للشريعة الإسلامية ومناف للوحدة الدينية . وأن ما عمله المعتصم كان لإخلاله بأصول الأحكام الإسلامية من الشورى وكفالة الأمة للإمام والتحرى فى اتخاذ البطانة فقد قال تعالى « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم » الآية . للمفسرين وجهان فى قوله « من دونكم » قيل هم المنافقون وقيل الكافرون . وكان أولئك الأحداث أحد الفريقين فإنهم اتخذوا بطانة ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم كما علم من مقالات (الإســلام والنصرانية) وقد تحقق فيهم قوله تعالى (لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم) ولكن ناصحنا الأمين حرف قول الإمام فى هذا المقام إلى فتنة سياسية فزعم أن مراده الحكم بأن الترك والفرس لا يعتد بإسلامهم وأن الدين خاص بالعرب أى أنه لا يعتد بإسلام مثل البخارى ومسلم وأبى حنيفة والغزالى !!! نعوذ بالله نعوذ بالله .

ياحسرة على أعداء الشريعة الإسلامية التمسوا لها عيباً فيها فأعياهم وأعوزهم فالتمسوه فى المقيمين لها (كأبى بكر وعمر) فأعياهم وأعجزهم ، فنقبوا عنه فيمن انحرفوا عن صراطها فنكبوا فأصابوه وألصقوه بها وقالوا إنها شريعة ضارة يجب تركها واختراع شريعة بدلها !!

كانت رابطة فى الوحدة الاجتماع البشرى محصورة فى البيوت (العائلات) ثم اتسعت فصارت فى القبائل ثم اتسعت بناموس الترقى فكانت الشعوب والأمم الكبيرة التى وحدتها الجنسية باللغة أو الدين أو البلاد (الوطن) وكان الدين خاصاً لا يتعدى الشعب الذى وجد فيه إلى أن ظهر الإسلام . فإن فى الأناجيل المعتمدة عند النصارى إلى اليوم أن المسيح عليه الصلاة والسلام قال : « لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة » وقال « ماجئت لأنقض الناموس وإنما جئت لأتمم » والناموس هو شرع الإسرائيليين الخاص بهم وتتميمه ببيان الحق فيما اختلفوا

فيه منه وفى بيان أسراره والتوسع فى القسم الروحانى منه . وأما ما ينقلونه عنه من أنه قال « اكرزوا بالإنجيل فى الخليقة كلها » فهو مخالف لما تقدم فى الظاهر ويمكن أن يتفق معه بجعل (أل) فى الخليقة للعهد أى الخليقة المعهودة وهى الأمة الإسرائيلية حيث كانت وأين وجدت .

بعد هذا استعد البشر بناموس الارتقاء إلى وحدة أوسع من كل ما تقدم — إلى وحدة يمكن أن تدخل فيها جميع الشعوب والقبائل والأمم والأجناس المختلفين فى البلاد واللغات والأديان — إلى وحدة لها رابطتان (إحداهما) جسمانية اجتماعية عمرانية دنيوية وهى أن يحكوا بشريعة عادلة تساوى بينهم فى الحقوق لا يمتاز فيها كبير على صغير ولا غنى على فقير ولا عربى على عجمى ولا متدين بدين على متدين بغيره (وثانيتهما) روحانية أخوية تختص بمن يجمعهم الاعتقاد الصحيح المبنى على البرهان الصريح ، وهذه الوحدة هى الوحدة التى جاء بها الدين الإسلامى وعمل بها المسلمون فى الصدر الأول فكان المخالفون لهم فى الدين يفضلون حكمهم على حكم المتحدين معهم فى الدين واللغة والوطن . ولم توجد المساواة ولا العدالة الصحيحة إلى اليوم إلا فى الإسلام فهذه الدول الأوربية الراقية بالوطنية لا تساوى بين أبنائها وأهل مستعمراتها فى الأحكام بل ألزمت الحكومات الضعيفة فى غير بلادها بالخروج على العدل والمساواة وتميز أجناسها على رعايا كل حكومة من تلك الحكومات فالمصرى يقتل فى مصر إذا قتل أجنبياً ولكن الأجنبى لا يقتل بالمصرى وقد كنا أوضحنا هذا المبحث فى مقالة عنوانها (الجنسية والدين الإسلامى) فلتراجع فى المجلد الثانى من المنار وفى سائر مجلدات المنار مباحث كثيرة تؤيد هذه المسائل المتفرقة وتعضد القضايا المتعددة فى هذا المقال .

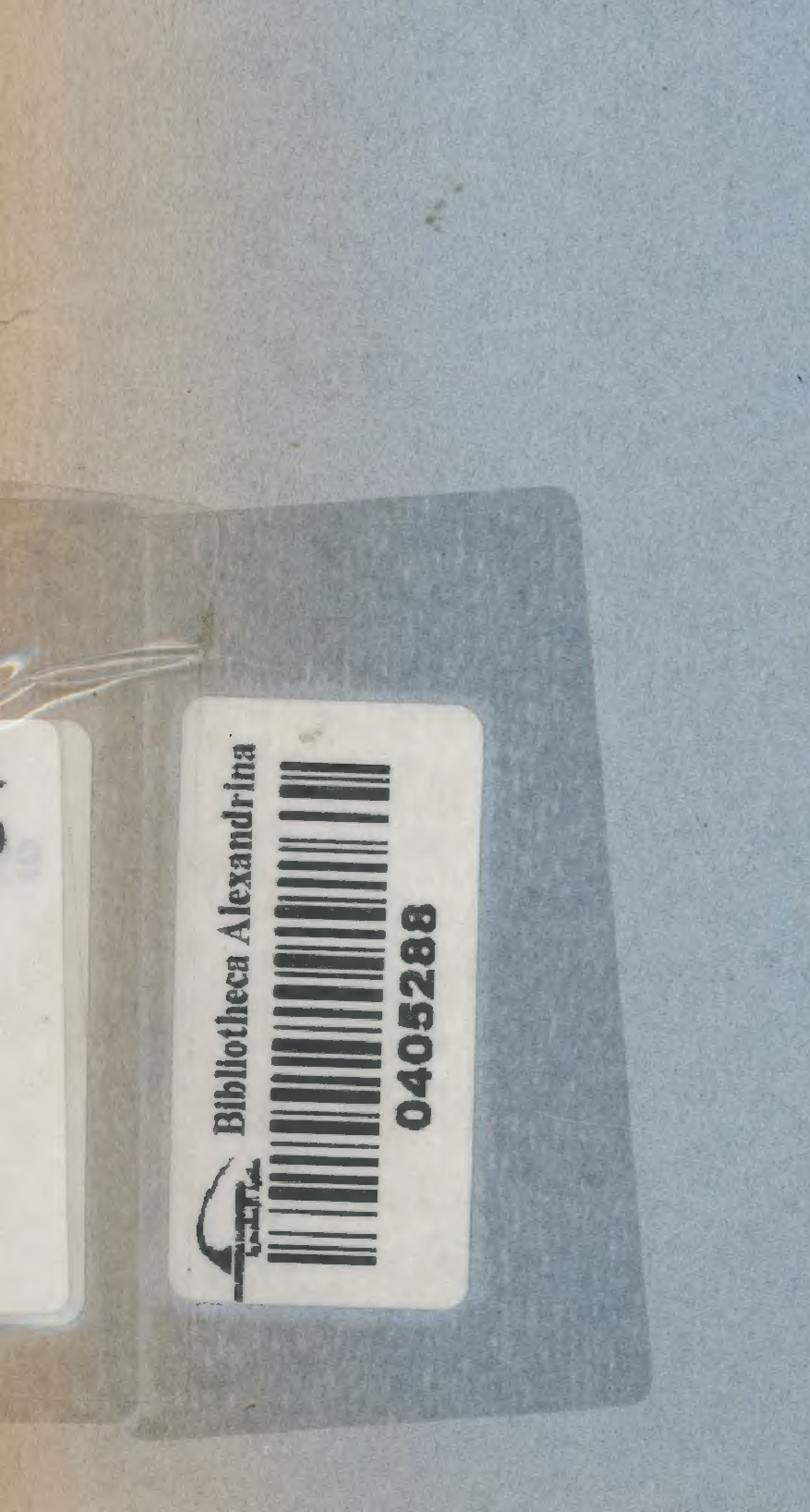
فتبين بمجموع ما تقدم أن الوحدة التى جاء بها الإسلام هى على ما يترقبه البشر وأفضل ما يتوجهون إليه ولكن الرياسة الروحية فى الدنيا النصرانية التى جعلت الدين مصلحة من المصالح ينتفع بها الرؤساء وخروج الحكام المنتسبين للإسلام عن قواعدها هما السدان المانعان من انتفاع البشر بها وستدك الحرية السدين ، ويجمع البشر بالإسلام بين السعادتين » ا ﻫ ص ٨٥٩ م ٥

تم الكتاب

فهرس « شبهات النصارى وحجج الإسلام »

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
04052288